أمير حمد

جيجي وأرنب علي

AMEER AHMAD

مكتبة نوميديا

أمير حمد

جِيجِي وَأَرْنَب عَلِي

قصّة قصيرة

فهرس

بصرامة طفلٍ يلعب

القلعة الخشبيّة 9
جيجي وأرنب علي 15
ما يشبه الثّعلب 31
ما تبقّى له 39

بيوتٌ تطارد ساكنيها

أصوات البيت السّفليّ 45
الشّرفة التي تطلّ على الأزرق 49
منزل نهاية الأسبوع 61
ركضٌ حول بيت الجدّة 67

كلّما عبرتُ حاجزاً

يدٌ تحاول أن تصير مفتاحاً 77
على حاجز قلنديا 81
دليل العمل في شركة برمجةٍ ألمانيّةٍ في رام الله 89
طريق القدس يافا 101

شبحٌ يراقص بحيرةً

ذلك الصّيف 109
زهرةٌ في أخدودها 115

ضحكتْ سيلينا 123
البحر خلف البيت 131

قافيةٌ لرثاءٍ سريعٍ

حكاية سعاد 141
جابر بن حيّان 147
حصان السّيّد وحيد 151
ضيعة المتنبّي 157

بصرامة طفلٍ يلعب

القلعة الخشبيّة

لا أدري تماماً متى خطرتْ لي الفكرة، أن أبني قلعةً كبيرةً تشبه القلاع التي تخيّلتُها وأنا أقرأ قصصي، والتي كنتُ أشاهدها أيضاً في برامج الرّسوم المتحرّكة.

كنتُ مولعاً دائماً بالقلاع، أن أمتلك قلعتي الخاصّة وأحكمها كالأمير في الحكايات، أن أكون قادراً على النّظر إلى الخارج من أسوارها التي لا يستطيع أحدٌ تسلّقها.

لذلك، توجّهتُ إلى صديقي الأقرب أنس، جاري وشريك مقعد الدّراسة، الذي كنتُ دائماً أشاركه أفكاري الخاصّة، مستشعراً ربّما لذّة إفشاء السّرّ لشخصٍ واحدٍ فقط.

حدّثتُه في البداية عن متعة امتلاك قلعةٍ لا يُسمح لأحدٍ غيرنا بدخولها، أن نكون ملكين يشتمان من أسوارها أطفال الحيّ، أن نطلق عليهم الماء من أسلحتنا البلاستيكيّة إذا اقتربوا، وأن نلعب فيها طويلاً غير آبهَين بالمدرسة، أو بانتهاء وقت اللّعب في المساء.

كان أنس يستمع مدهوشاً لوصفي، وتمنّى امتلاك قلعةٍ مثلها، فأخبرتُه بأنّ علينا بناء واحدةٍ بيدينا، فهتف على الفور:

– منبنيها من الخشب.

سألتُه:

– من وين رَحْ نجيب خشب يكفّي؟

فأشار إلى قطع الخشب الكثيرة المرتّبة فوق بعضها، التي نبصرها كلّ يومٍ في كراج تصليح السّيّارات عندما نعود من المدرسة، وأضاف بتحمّسٍ:

– صاحب خالي بشتغل هناك، بسألو أوّل ما أشوفو إزا بنفع ناخدهم.

ربّما كان أحد دوافع أنس رغبته في أن يمتلك مكاناً يبتعد فيه عن معضلة طلاق والديه، رغم أنّه أخبرني عن سعادته بأن يقيم في بيتين ينال فيهما دلالاً إضافيّاً، وعن ارتياحه لانتهاء مشاجراتهما التي كان يتجسّس عليها من الحمّام.

لكنّ دافعي الأساسيّ كان مختلفاً. كنتُ أمتلك رغبةً في الهروب غير نابعةٍ من أيّ شيءٍ، كانت رغبةً لذاتها، فقد كنتُ أعيش طفولةً سعيدةً مليئةً بكلّ ما أريد.

أخبرني أنس أنّ صديق خاله سمح له أن نأخذ قطع الخشب المرميّة منذ الأزل في تلك الباحة. كيف علّل طلبه الغريب ذلك؟ لم أسأله حينها، كنتُ سعيداً لأنّي اقتربتُ بضعة سنتيمتراتٍ من حلمي.

في باص المدرسة، كنّا نجلس في آخِره، في المقعدين المرتفعين. أُمسك قلماً ودفتراً قرب النّافذة وأرسم شكل القلعة، أدوّن الأفكار عنها، وأنظر إلى البيوت في الخارج فأسرق تفصيلةً تعجبني من هنا

أو هناك. يضيف أنس إلى أفكاري، يعدّل بعضها، ويقنعني أن أُسقط بعضها الآخَر.

كانت القلعة تكبر كلّ يومٍ مفسحةً المجال لرغباتنا الأخرى، كبناء ملعب كرة قدمٍ نقلّد فيه مهارات الكابتن ماجد، وقيادة مراكب مقاتلةٍ تشبه غرينديزر، وامتلاك بوكيموناتٍ نطلقها من كراتها الحمراء.

ولكي نؤمّن المزيد من الأخشاب اللّازمة لذلك، نستطيع -كما قال أنس- أن نحصل عليها من الحرش القريب، الذي كنّا نسمّيه «الغابة» لكثرة أشجاره، باستخدام فأس جدّه ومنشاره.

كان أنس يشاركني خيالي، يشرعنه لي، كما في المرّة التي أشرتُ فيها -ونحن في الباص- إلى حقل صخورٍ يلمع تحت الشّمس، قائلاً:

- اتطلّع هناك! هَي غوليم[1] متخبّي زي الحربايّة.

- آه والله! اتطلّع منيح وراه كمان، هَي أونيكس[2].

كانت أحلام يقظتنا توسّع باحة بيت جدّ أنس، المكان الأنسب للبناء. وكان العالمان -الخيال والواقع- صديقين مثلنا، وإذا تخاصما أحياناً عندما نواجه معضلةً منطقيّةً، كانت رغبتنا تنجح عادةً

(1) غوليم: نوع من البوكيمونات الصّخريّة يشبه الكرة.

(2) أونيكس: نوع من البوكيمونات الصّخريّة يشبه سلسلةً من الحجارة المتّصلة.

في الانتصار للخيال، أو كنّا نؤجّل التّفكير في المعضلة واثقَين أنّ الحلّ سيأتي من تلقاء نفسه فيما بعد.

استنتجنا أنّ الوقت المناسب للبناء هو نهار الجمعة، فلن نستطيع الرّؤية في المساء بعد إنهاء الوظائف المدرسيّة، ولا البناء أيضاً في يوم العطلة الآخَر الذي يقضيه أنس مع أبيه. كنّا نؤجّل العمل دائماً كي نتأكّد أنّنا استنفدنا كلّ الأفكار، فماذا سيحدث لو خطرتْ لنا فكرةٌ بعد إنهاء البناء؟ كيف سنضيفها؟

كان الأمر سهلاً للغاية مثل تركيب قطع «اللّيغو»، ليس علينا سوى تجميع الأجزاء الخشبيّة معاً وضربها بالمسامير. قربنا غابةٌ لا تنضب أشجارها، تمنحنا ببضع ضربات فأسٍ وحركات منشارٍ ما ينقصنا. نحتاج فقط إلى يوم جمعةٍ واحدٍ، نبدأ العمل فيه منذ الصّباح وننتهي في المساء.

كنتُ قد رأيتُ في واجهة أحد متاجر الألعاب رجلاً آليّاً يمكن التّحكّم به عن بعدٍ. كان سعره باهظاً جدّاً، لذا أخذنا ندّخر من مصروفينا كي نشتري «الرّوبوت»، الذي سيساعدنا على تشييد القلعة التي غدتْ مدينةً خشبيّةً طائرةً في السّماء، كأنّها تتغذّى على جذور الأشجار في غابتنا.

كنتُ أشعر حقّاً أنّي أسكن القلعة، فكلّما تشاجرتُ مع والديّ، أو المعلمين، أو الأصدقاء الآخَرين، كانت تحيطني بأسوارها وتطير بي تاركةً جسداً أصمّ في مكاني لا يأبه بما حوله. وأحياناً، حين لا أكون قادراً على الخيال، كنتُ أنتقم منهم قائلاً في سرّي: «بفرجيكم لمّا أبني القلعة». ولا شكّ أنّ القلعة كانت تمدّ يدها إلى أنس كذلك.

* * *

في مقعدينا المرتفعَين في الباص، وأنا أنظر كعادتي من النّافذة، ناقلاً الخارج إلى الدّفتر الذي امتلأ عن آخِره تقريباً، أخبرني أنس بلهجةٍ جادّةٍ، بعدما سألتُه عن كمّيّة المال الذي ادّخرناه إلى الآن، أنّه سيعيش مع والدته في شقّةٍ مستأجرةٍ، وأنّه سينتقل أيضاً إلى مدرسةٍ أخرى قريبةٍ من مكان سكنه الجديد، لأنّ خاله وشريكه سيهدمان بيت العائلة، ويقيمان مكانه عمارةً كبيرةً تشبه «القلعة»، ستغطّي مساحة الأرض كلّها، ثمّ أضاف عندما أبصر الخيبة التي ارتسمتْ سريعاً على وجهي:

– بس سنتين هنغيب، ولمّا نرجع هيكونلنا أنا وإمّي شقّة، ويصير عندي غرفة لحالي.

منذ متى كان يعلم بذلك؟ حاولتُ في طريق العودة أن أجد حلًّا معه لهذه المعضلة، لكنّنا لم نكن قادرَين على الاستعانة بالخيال هذه المرّة، فظللنا صامتَين منذ أنزلنا الباص كعادته في أوّل الشّارع، دون أن نلتفت إلى الكراج، وحتّى مرورنا بالحرش.

هناك، وقفنا مشدوهَين ونحن نشاهد ألسنة النّار وهي تخترق أشجار الغابة متّخذةً أشكالاً عديدةً، غير آبهةٍ بمحاولات إطفائها.

أشار أنس فجأةً إلى أعلى هاتفاً:

– اتطلّع!

كان الدّخان المتحرّك بفعل ريحٍ عاليةٍ يرسم قلعةً ضخمةً، حالًّا ما سبق أن اعتبرناه معضلةً كبيرةً، معضلة الجمع بين ثبات القلعة وقدرتها على الطّيران.

جيجي وأرنب علي

كانت زيارة خالته وابنتها جيجي البالغة من العمر عشرين ربيعاً فرصته الذّهبيّة، عليه أن يستغلّ وجودهما، أن يستغلّ الجوّ المريح الذي يخلقه حضورهما، وأن يخرج بخطّةٍ محكمةٍ تلعبان الدّور الرّئيسيّ فيها. فخالته التي قضت أكثر من عشرين عاماً في أميركا، بعد أن تزوّجها شابٌّ هولنديٌّ مناصرٌ للقضيّة الفلسطينيّة أسلم في القدس، أصبحتْ تشبه الأجانب، صارت لطيفةً مثلهم، تحتفل بأعياد ميلاد أطفال العائلة جالبةً الهدايا الثّمينة، وتحضنهم بدلاً عن القبلات حين يأتون للزّيارة. لكنّ الشّيء الأهمّ بالنّسبة إليه، كان شغفها بالحيوانات، وسماحها لأولادها بتربيتهم، فمرّةً -كما أخبرتْه- سمحتْ لابنها بأن يربّي سحليّة إغوانا رغم خوفها من ذيلها، وهي تمتلك كلباً ضخماً اسمه بوتشي، تتحدّث عنه دائماً بالخير، وحين يكلّمها زوجها عبر تطبيق سكايب، تطلب منه أن يقرّب الكاميرا من وجه الكلب، فتقبّله قبلاتٍ عدّةً على زجاج «التّابلت»، كما لو أنّه زوجها.

كانت الفتاة الشّقراء مطمع نساء العائلة، فكلّ واحدةٍ تحلم بخطفها زوجةً لابنها أو لأحد معارفها، وبأن تترك الولايات المتّحدة،

وتأتي لتعيش في عمارةٍ من عشرة طوابق، تسوّرها المباني في بلدة كفر عقب المطلّة على الحاجز. فالفتاة بيضاء البشرة ملوّنة العينين، لها طولٌ وجسمٌ مثل عارضات أزياء فيكتوريا سيكرت، تحمل الجنسيّة الأميركيّة والهولنديّة، وتعمل حاليّاً على رسالة ماجستير في القانون الدّوليّ، بعد أن أنهت البكالوريوس في سنتين فقط، وينتمي هواها وأخلاقها إلى شرقنا المشمس، فهي تكره الميوعة الأميركيّة، لا تجد رجولةً في شباب الغرب، وتحبّ الزّيت والزّعتر. سيحرص الجميع على رضاها وأمّها، وسيخجلون من الهدايا «الأصليّة» التي أُمطروا بها، ومن إنكليزيّتهم الضّعيفة حين يحاولون أن يبرّروا لجيجي رفضهم أمراً من الأمور، بعد عدم فهمها إيّاه بالعربيّة.

لم يرَ علي -البالغ من العمر 11 عاماً- في ابنة خالته جيجي سوى دهشتها، وانقضاضها الحميميّ على كلّ حيوانٍ تشاهده في الشّارع، ككلب الجيران الأجرب، والقطّة العوراء قرب الحاوية، والحمار المسكين الذي يركبه كلّ أولاد الحي. كانت الخطّة تنضج في لاوعيه ببطءٍ، مستفيدةً من البيانات الحيوانيّة التي يلتقطها ذهنه الشّبيه برادارات الأساطيل الأميركيّة، الذي أصبح يعمل -على غير عادته- بطاقة تشغيله القصوى.

كان علي أكثر أطفال العائلة قرباً من جدّه وجدّته، يعاونهما دائماً ويقضي أوقات فراغه عندهما. تمدحه جدّته كثيراً رغم توبيخها له هي وأمّه لأنّ كلّ أحاديثه عن الحيوانات، كأنّه قاموس حيواناتٍ متنقّلٍ كما يصفه أخوه الأكبر المنطوي على نفسه. وأحياناً كثيرةً تشعران أنّه يخترع كلماته الخاصّة لوصفها، كقبيلةٍ تعيش على صيد السّمك فتمتلك العديد من المفردات لسمكةٍ واحدةٍ.

نشأتْ -فور وصول جيجي- صداقةٌ بينها وبين علي، لطيبته، ولوجهه الذي نمتْ فيه تفّاحتان تسبّحان الخالق تهوى قرصهما. فتح كلّ واحدٍ منهما قلبه للآخَر، دون أن يفصلهما جدارٌ لغويٌّ، إذ علّمتْ خالته أبناءها العربيّة وهم صغار، عندما كانت تصحبهم معها في زياراتها إلى فلسطين مقيمةً في بيت أهلها القديم، وهي تحاول أن تتكلّم العربيّة معهم في المنزل باستمرارٍ. وحين تعيق كلمةٌ ما التّواصل، كان علي يلجأ إلى قاموسه الدّاخليّ الذي أنتجتْه حصّة اللّغة الإنكليزيّة.

أخبرتْه عن طفولتها في مزرعتهم في ولاية بنسلفانيا، كيف كانت تركب فرسها الأسود الذي سمّته «برق» بالعربيّة، وتفوز به في مسابقات الخيل. حدّثتْه عن إطعام الطّيور وجمع بيض الدّجاج وحلب الأبقار، فكان يصغي بلذّة شهريار لشهرزاده، لكنّه لم يكتفِ بالإصغاء، فأخبرها عن طفولته في قرية سنجل في الرّيف الفلسطينيّ، حين كان يلعب مع الماعز ويركب الحمار ويسرح في الجبال بحثاً عن القنافذ. حكى لها قصص هروبه من الرّوضة وذهابه إلى المزرعة التي يمتلكها صديق والده، وكيف تمكّن من أن يلفّ الخراف لفّتين بعد أن راهنه صاحبها على ذلك.

قضت الأمّ وابنتها أسبوعهما الأوّل محبوستين في البيت، فقد كان الجوّ مشتعلاً بالمواجهات مع قوّات الاحتلال. ولأنّ الحواجز -التي تشتعل عليها المواجهات- تشرخ كلّ مدينةٍ عن أختها، وحتّى عن نفسها أكثر الأحيان، لم يكن أمامهما سوى مدينة رام الله للزّيارة، التي لم تحبّها جيجي لامتلائها بمحلّات الماركات الغربيّة التي تبيع أردأ القطع بأسعارٍ تنافس محالّ بيفرلي هيلز، ففضّلتا البقاء في البيت،

واستقبال الوفود التي جاءت كي تلتهم جيجي بعيونها، كما تلتهم ضفّتا المنصّة أجساد عارضات الأزياء المتمايلة كالقوارب في سيل أسابيع الموضة.

حينها استغلّ علي الفرصة. اكتملتِ الخطّة داخله، فتوجّه إلى خالته الجالسة قرب أمّه وأمّها، عارضاً عليهنّ أن يصحب جيجي وأخته الصّغيرة مريم إلى المتنزّه الجديد، فهو عائليٌّ لا يؤمّه الشّباب، ومحاطٌ بأشجارٍ «تفلتر» الهواء، فتستطيع جيجي المسكينة أن تتنفّس قليلاً هواء وطن أمّها، الذي لم تتخيّل -بأسوأ كوابيسها- أنّه أصبح شقّةً تكرهها الشّمس في منطقةٍ مكتظّةٍ كهذه، منطقةٍ يهرب إليها الجيل الجديد من أبناء القدس -لاحتفاظهم فيها بـ«هويّاتهم» الزّرقاء- من أسعار العقارات الخياليّة في عاصمتهم وضواحيها، ومن قيود بلديّة «أورشليم القدس» على البناء والتّرميم.

وجدتِ الأمّهات اقتراح علي معقولاً، فجيجي -التي اعتادت الانطلاق راكبةً اسم فرسها من ولايةٍ إلى أخرى، مساحة كلٍّ منها أضعاف مساحة فلسطين التّاريخيّة، وأضعاف أضعاف مساحة فلسطين الأوسلويّة، وأضعاف أضعاف أضعاف مساحة فلسطين اللّيكوديّة، في فترةٍ زمنيّةٍ أقلّ من الانتقال من شارع كفر عقب إلى حاجز قلنديا- أصبحتْ تشبه كناريّ الجيران، الذي لصخب ضجيج السّير الذي يطلّ عليه من قفصه اعتزل الغناء، واكتفى بالتّحديق الأبكم في بانوراما الخرسانة أمامه، حيث سيصوّر قريباً المخرج الأميركيّ مارك ويب الجزء الجديد من فيلم «الرّجل العنكبوت المذهل»، لكثرة الأبراج السّكنيّة، وسهولة قفز «الدّوبلير» من سطح عمارةٍ إلى أخرى.

وجيجي -التي تقضي الوقت أمام شاشات الأخبار تشاهد المتظاهرين العزّل يُنكَّل بهم من قبل جنودٍ مدجّجين في سيّاراتٍ مصفّحةٍ، أو على أحصنةٍ أميركيّةٍ- اقتربتْ من الإصابة بمرض فقدان الشهيّة (أنروكسيا)، الذي يصيب عادةً عارضات الأزياء حين يخفن على عقودهنّ مع الشّركات العابرة للقارات.

فلا شكّ أنّ الكنافة -التي اقترح علي أن يأكلوها في المتنزّه- ستعيد لورود خدّيها بعض اللّون، لذلك أوصته أمّها -بعد أن وافقتْ جيجي على الذهاب وناولتْه الجدّة 50 شيكلاً- أن يحاول إطعامها أيضاً شيئاً أكثر دسماً كالشّاورما.

في الشّارع، عدّ علي بفرحٍ الأموال التي في يده. لم يخطئ العدّ بالطّبع، لأنّه يحمل ورقةً واحدةً يحيا فيها الشّاعر الصّهيونيّ شاؤول تشرنحوفسكي، بعد أن حمل إصدارها السّابق صورة حائز نوبل الأوكرانيّ يوسف عجنون. وبلحظةٍ، تحوّل ذهنه إلى آلةٍ حاسبةٍ علميّةٍ، لو استعملها في امتحان الرّياضيّات لضمن العلامة الكاملة. أخذ يحسب بصمتٍ وسرعةٍ هائلةٍ:

«(3.5 + 3.5 + 3.5) مواصلات – (0.5) خصم لإنّا 3 أشخاص سَلْبَطَة على الشّوفير + (4.0 + 4.0 +4.0) نص وقيّة كنافة لكل واحد + (1.0 + 1.0 + 1.0) كاسة تمر هندي لكل واحد = 25.0 شيكل بضلّو معي بقدر أشتري فيهم أرنب بـ15 وقفص بـ10».

وبعد أن اطمأنّ أنّ الأرنب الذي قفز طويلاً في أحلام نومه ويقظته، والذي استغلّ خالته وابنتها لأجله، لا يزال محشوراً في

قفصه في واجهة محلّ الحيوانات، وبعد أن أخبره بالتّخاطر أنّه سيشتريه اليوم، نظر إلى جيجي قائلاً:

– الطّقس حلو كتير، شو رأيك نمشي بدل ما ننحشر بفورد هلّأ؟ بس عشر دقايق لربع ساعة مشي.

وقبل أن تجيب، سأل مريم:

– شو رأيك مريم؟

فوافقتْ أخاها فوراً. استحت جيجي من الرّفض خشية أن تبدو كسولةً ومرفّهةً أمام الطّفلين النّشيطَين. وأضاف علي الذي يدرك أنّ الإنسان لا يقوى على المشي بعد اللّعب:

– بس نرجع منرجع بفورد.

في شوارع كفر عقب العتيقة، المليئة بالمطبّات والحفر الشّبيهة بوجه القمر الآخَر الذي قصفته النّيازك، كانت جيجي المشوقة كرمحٍ، بشعرها الأشقر المموّج الذي يلامس خاصرتها، سبباً إضافيّاً للأزمة الخانقة التي تتحرّك فيها السّيّارات متراً كلّ ساعتين. كانت ترتدي صندلاً مكشوفاً ماركة تومي هيلفيغر، تنعس فيه قدمان بأظافر مبرودةٍ ومطليّةٍ باللّون البنفسجيّ الفاتح، ما صعّب عليها المشي في غياب الحدود بين الرّصيف والشّارع، إذ تضجر أحياناً الحفر المليئة بالمياه العادمة من سقوط المركبات فيها، فتغيّر مكانها إلى الرّصيف، فأن يسقط عليك إنسانٌ أفضل بالنّهاية من شاحنةٍ عملاقةٍ.

كانت المركبات الخاصّة والعامّة تترك الشّارع وتتجاوز الطّابور الصّنميّ مسرعةً على رصيف المشاة، يشّجعها الاختناق المروريّ،

ومراقبة جيجي من مسافةٍ يتغبّر فيها شعرها من ملامسة غطاء المحرّك الأبيض بسبب المشي في طريق الكسّارات. كانت كلّ الرّؤوس -حتّى رأس السّائق- تخرج من النّوافذ اليمنى للمركبة وتحدّق في الجسد الشّاب، صامتةً، أو مصفّرةً، أو عارضةً توصيلةً «للعسل». لكنّ علي كان يقف لهم بالمرصاد، زائراً بوجههم وراشقاً إيّاهم بشتائم من العيار الثّقيل، بعد أن يغلق بأصابعه أذنَي مريم، فتضحك جيجي التي لم تتعلّم بعد تلك الكلمات بالعربيّة، إذ تحسّ بلاوعيها بقوّة الشّتيمة.

وبعد أن انتهى فصل كفر عقب، وفي مدخل مدينة البيرة المكتوب فوقه «البيرة تستودعكم القدس»، سألتْ جيجي بعربيّتها العرجاء علي عن المدّة المتبقّية للوصول، فأجابها:

- عشر دقايق بس.

فأكّدتْ مريم:

- بس عشرة.

فأخبرتْه جيجي أنّه قال لها «عشر دقايق» قبل نصف ساعةٍ، فردّ علي:

- لإنّك بتمشي زي الحلزونة، لو بتمشي بسرعة زينا أنا ومريم كان مبارح وصلنا.

فقالت مريم ناهرةً:

- ما تمشي زي الحلزونة.

كانت شوارع البيرة معبّدةً، بلا نزاعاتٍ حدوديّةٍ مع الأرصفة، فشعرتْ جيجي ببعض العزاء. لم تفهم ما هي «الحلزونة»، لكنّها أدركتْ أنّها شيءٌ لا ينبغي لأحدٍ تقليده، فاكتفت بالمشي صامتةً. وبعد نصف ساعةٍ، تخلّلتْها معاكساتٌ خفيفةٌ كان علي لها بالمرصاد، جلستْ جيجي لتريح قدميها المتعبتين على طرف حوض وردٍ، فتأفّف علي قائلاً لها:

– بتعرفي إنّو النّاس كل يوم جمعة بمشو الصّبح من رام الله للخليل بس بنص ساعة؟

فقالت مريم:

– أقل من نص ساعة.

ثمّ أشار بإصبعه إلى الأفق قائلاً لجيجي:

– شايفة الشّجر هناك؟ هداك المنتزه، يلّا بكفّي دلع.

فأضافت مريم دون أن تلتفت إلى جهة الإشارة:

– أنا شايفته.

حدّقتْ جيجي فلم تجد شيئاً، لكنّها أجابته أنّها تراه، خشية أن يكون بصرها أيضاً كالحلزونة.

أخيراً، وبعد أن استغرقوا في المشي ما يقارب السّاعتين، وصلوا المتنزّه. فور دخولهم، وبعد أن قرصهم الجوع لطول المسافة، تناول كلّ واحدٍ منهم نصف وقيّة كنافةٍ ساخنةٍ. كانت لذيذةً فأثنت جيجي عليها، وتمنّى علي أن يطلب نصفاً آخَر، لكنّه لم يُرد إفساد حساباته، فالتهم البقايا التي تركتْها مريم في صحنها.

أشرقتْ جيجي بعد الكنافة كياسمينةٍ تحت المطر. خلعتْ صندلها الذي اسودّت حوافه وأصابعها التي فيه وركضتْ على الرّمل. كانت تشبه طفلةً تطيّر طائرةً ورقيّةً على شاطئ البحر. أَحبّها الصّغار فشاركوها اللّعب، فوجهها الطّفوليّ المرسوم بريشة ابتسامتها، وعيناها اللّتان تلمع فيهما أفراس طفولتها، فتحوا أبواب الأطفال الموصدة لها. كانوا يركضون ويقفزون ويتمرجحون معاً. كانت تشبه فرساً أبيض يجرّ عربةً مكدّسةً بهم. وكان الأرنب قد قفز من رأس علي في فرحة اللّعب وأخذ يلهو وحده تحت الرّمل.

بعد اللّعب، اشتروا مشروب التّمر الهنديّ. اسودّت شفاههم بالصّبغات السّوداء، فأخبر علي جيجي أنّ ذلك دليلٌ على أنّ ما سقاها إيّاه طبيعيٌّ مئة بالمئة. خرجوا من المتنزّه، فعاد الأرنب إلى رأسه. اشتمّت جيجي رائحةً زكيّةً، قفز أنفها من مكانه فلحقتْه بقيّة أعضائها وعلي ومريم، ثمّ غدت الرّائحة –أمام زجاج مطعمٍ– سيخ شاورما ضخماً يطوف كالنّشوان حول نفسه، فسال لعاب المسكينة بعد أيّامٍ من شبه الإضراب عن الطّعام، فطلب فمها وجوقة ملامحها خلفه أنْ يأكلوا شاورما بالطّحينة، التي طالما أحبّتها في طفولتها.

نظر علي إليها نظرته إلى شخصٍ يمدح الاحتلال ويلعن العرب، قائلاً لها:

– أوعي، هاد المحل مشهور بلحمة الحمير. بخلّي أبوي يجيبلك من اللّحام شاورما ومنسوّيها بالدّار. صاحب أبوي شافهم بعيونو بدبحو حمير، صح مريم؟

– صحيح، بِتْكَزِّزْ لحمة الحمير.

أوقف علي مركبة فوردٍ عموميّةً وخاليةً. وحين ركب بجانب السّائق، سمعه يقول له:

– ولك كيفك يا علي؟

كان السّائق ابن عمّ والده من سنجل، فلم يأخذ أجرةً منهم، ولم يقلّ معهم أيّ ركابٍ آخَرين كي ترتاح ضيفتهم، فابنة خالة ابن ابن عمّه بمثابة أخته. كان طريق العودة خالياً من السّيّارات تقريباً، وتمنّى علي –وهو يتذكّر تذمّر جيجي والكنافة اللّذيذة– لو أنّه شاهد ابن عمّ والده في طريق الذّهاب، لكنّه نسي أحزانه حين أخبره السّائق –الذي يصطاد في أوقات فراغه– كيف اصطاد حيوان النّيص الأسبوع الماضي، وعندما أجاب كلّ أسئلته عن الأرانب.

وعندما وصلوا، أخبرهما علي أن يسبقانه، إذ يرغب في رؤية صديقه قليلاً. وبعد أن ابتعدتا، توجّه إلى محلّ الحيوانات، ودار حوارٌ بينه وبين الأرنب، عاتبه على تأخّره، فاعتذر مطمئناً إيّاه أنّ حرّيّته قريبةٌ.

أخبر علي البائع «الأزعر» دون مقدّماتٍ أنّه يرغب في شراء الأرنب في الخارج. تبعه فأشار إلى طلبه قائلاً إنّه يريد معه قفصاً. أمسك البائع الحيوان من أذنيه، فشعر علي بالغضب. وضعه في قفصٍ، فناوله على الفور ثمنهما.

ركض بسرعةٍ نحو البيت، ممسكاً القفص بطريقةٍ تضمن سلامة الأرنب، طالباً منه أن ينتظر قليلاً. صعد الدّرجات حتّى وصل باب الشّقّة. هناك، أخرجه برفقٍ فقرّبه من وجهه وقبّله بين عينيه عدّة مرّاتٍ، ثمّ طلب منه أن يبقى هادئاً في الدّاخل. خبّأه خلف ظهره، فأخذ يحرّك أرجله عبثاً، ظانّاً الهواء تحته عشباً رقيقاً وشفّافاً.

فتح الباب وتوجّه إلى مكان جلوس أمّه وجدّته وخالته وابنتها، وكمن يُظهر خاتم زواجٍ مفاجئاً خطيبته وهو يبتسم ابتسامةً عريضةً، أظهره أمام خالته، موجّهاً إليها الحديث:

– شوفي ما أحلاه خالتي! اشتريتلو قفص كمان.

كان علي ينتظر ردّة فعلٍ مشجّعةٍ منها، كأن تبدأ بقول «أُووووه»، وتتناوله منه فتقبّله كما قبّلتْ بوتشي، وتقول جُملاً مثل «بجنّن، شو بدّك تسمّيه؟». لكنّ ردّة فعل أمّه وجدّته كانت أسرع وأقوى من أيّ ردّة فعلٍ إيجابيّةٍ من خالته تضغط بها عليهما، فصرختا فيه كما لو أنّه يمسك شهادة رسوبه بالثّانويّة العامة، لا أرنباً ناعماً «يُفَعْفِطُ» في الهواء:

– أنا مش خالصة منكم إنتَ وإخوتك، بدّي أشطف خراكم إنتو ولا خرا الأرنب؟ لازمني أمراض وجراثيم وحيوانات جربانة؟

بعدها، نظرتْ إلى أختها قائلةً لها:

– أنا مش عالمصاري والله، بس الله وكيلك جنّني يا شيخة، فش إشي براسو غير الحيوانات. مفكّرنا لسّا عايشين بسنجل، مفكّر علبة السّردين إلّي ساكنينها مزرعة بكاليفورنيا. مرّة بجبلي حمامة مع عشها وبيضها، ومرّة كلب أسود من اللّيل بخوّف الجن، ومرّة بربّي تحت التّخت صرصور وعاملّو بيت بعلبة الكنادر. هدول حيوانات أرواح حرام، بدهم مكان يتنفّسو فيه، مش عمارة بِتَّعْتَرْ أهلها فيها ببعض.

بعد ذلك استلمتْ أمّها دفّة سفينة الصّراخ، فصبّت كازاً على النّار:

– مرّة باللّيل كنّا أنا وأبوكي نايمين بأمان الله، إلّا منسمع صوت ببكي من البلكونة، ارتعب قلبنا، رحنا نشوف شو في، ولّا هِيّي بسّة صغيرة بتموّي، وعندها حليب ومرتديلا. أوّل واحد شكّينا فيه علي، وبعد كفّين من أبوكي اعترف كيف جابها لمّا اندعست إمها... .

كان علي ينظر إلى خالته منتظراً تدخّلها، إذ كانت كلّ خطّته مبنيّةً على ردّة فعلها في لحظةٍ كهذه، لكنّ دهشتها من عنف الرّدّ عليه عقدتْ لسانها، فاكتفتْ بمحاولة تهدئة الأمور قائلةً لهما:

– ما صار إشي، ولد صغير هاد، it's ok, it's ok يا جماعة.

أدرك علي –بينما كان الأرنب المحمول يركض بأرجل حصانٍ– أنّها أصبحتْ تشبه الأجانب أكثر ممّا ينبغي، فارتأت عدم التّدخّل في شؤون غيرها، فوجّه عينَي القطّة في وجهه كمنظارٍ نحو جيجي، لعلّ صداقتهما تسعفه، فاكتفت بالصّمت وهي تفرك تورّم أصابعها، لتعبها من مشوارها الطّويل بين الحفر والمطبّات، وغضبها عليه، إذ بدأتْ تدرك وقتها أنّها وقعتْ في مصيدته كأرنبٍ أشقر صغير.

وكما في المرّة الأُولى، ركض علي بسرعةٍ بعد أن وضع الأرنب في القفص المتروك قرب العتبة، بيْد أنّ غضبه هذه المرّة أنساه حرصه، فأخذ الحيوان يصطدم بجدران قفصه.

كان البائع في محلّ الحيوانات يصرخ في طفلين جاءا ليعيدا كناريّاً يزقزق، مستغلًّا حالة غياب القانون في البلدة، التي لا تدخلها السّلطة الفلسطينيّة عادةً إلّا للقبض على تجّار المخدّرات أو الأسلحة، ولا يجتاحها الجنود إلّا لأسبابٍ «أمنيّةٍ»، فسمعه علي ينهرهما:

- مش راح أرجّع لو أجا نتنياهو شخصيّاً.

وأضاف مشيراً إلى لافتةٍ كُتب عليها «الحيوانات لا تستبدل ولا تعاد»:

- عندي قاعدة وحدة بالحياة، قاعدة وحدة!

انتبه البائع إلى علي فسأله ماذا يريد، فأجابه بغضبٍ «بدّي أرجّعهم». كانت النّار المشتعلة في عينيه تتغذّى على أشرطة الفيديو التي تدور الآن في ذاكرته، عارضةً خططه العديدة التي فشلتْ في إقناع أهله بتربية أيّ حيوانٍ مهما كان نوعه أو حجمه. جفل الشّاب من النّار التي انعكس وهجها على كلّ جسد علي، حتّى بدا أنّ وجهه يحوي -بدل التّفّاحتين- حقل تفّاحٍ كالذي أسقط والدينا من الجنّة، فأعاد له 30 شيكلاً من الخوف، عوضاً عن 25.

* * *

بعد أن رفضتْ جيجي كلّ شباب العائلة، لأنّها تمتلك أحلاماً أكبر قليلاً من الجلوس في البيت وإنجاب الأطفال كالأرانب، استغلّت نساء العائلة قصّة علي مع جيجي ليفضحنها، فقصصن على مسامع الجميع كيف أنّ طفلاً صغيراً ضحك على خرّيجة ستانفورد، حتّى أنّ القصّة -بعد أن تدحرجتْ كرةً بلا ثلجٍ في شوارع كفر عقب- وصلتْ إلى مسامع الـ(CIA)، التي فتحتْ ملفاً لعلي، وأخذتْ تُحقّق في ما وصفتْه خداع مراهقٍ فلسطينيٍّ -ممّن يرشقون الجنود بالحجارة- لمحاميةٍ أميركيّةٍ وإقناعها بالتّبرّع بـ«أرنب أخضر»

(مليون دولار حسب المصطلحات الفلسطينيّة) إلى جهاتٍ غامضةٍ ومشبوهة.

عادت بعد عامٍ خالة علي مع ابنتها الصّغرى بيلّا، ذات العيون الملوّنة والقوام الشّبيه بعارضات الأزياء، التي اقتربتْ من التّخرّج في عامين فقط من الجامعة بتخصّص علوم سياسيّة. عاد الأمل من جديدٍ إلى نساء العائلة، فبيلّا هذه تبدو أكثر وطنيّةً من أختها، تجيد العربيّة أفضل منها، وترتدي بلوزةً كُتِب عليها "Free Palestine"، وكوفيّةً حول عنقها العاجيّ، ينسدل عليها شعرها الأسود العربيّ، لا «الأصفر الهولنديّ» كأختها.

جلس علي مع جدّته وبيلّا حول طاولةٍ مكتظّةٍ بالصّحون، كانوا وحدهم، إذ ذهبتْ أمّه مع خالته إلى «الحِسْبة». كانت بيلّا حافيةً ببنطالٍ رياضيٍّ أسود، رابطةً شعرها على شكل «كعكةٍ»، ومتربّعةً على الكنبة تتعلّم من جدّتها حشو الجزر بالأرزّ واللّحم. وحين قامت جدّتها لتقضي حاجتها، استغلّ علي غيابها، وطمأن نفسه بأنّها لن تعترض على خطّته -بعد موافقة ابنة خالته عليها- بسبب تفاقم نسيان الأمور لديها.

كان علي قد جرّب طوال السّنة خططاً عدّةً فشلتْ جميعها، فحضّر واحدةً لبيلّا مستفيداً من سابقاتها، وبخاصّةٍ خطّة أختها. اقترب منها وهو يأمل ألّا تكون جيجي قد أخبرتْها بقصّتها المحرجة معه، وحين همّ بنطق جمله المكوّنة من كلماتٍ كتكسي، وشاورما، وملاهٍ، ومريم، فاجأته بيلّا بالحديث قبله بلهجتها الأميركيّة:

- ما تحاول حبيبي يا «ألي»، ما هتضحك عليّ زي جيجي!

وبينما كان علي ينقل بصره بينها وبين الصّحون الممتلئة، شاهد الأسنان الأماميّة لجميع الأرانب التي حاول الحصول عليها، تتجمّع في فمٍ واحدٍ انقضّ على الجزر المقوّر وعلى خطّته معاً.

ما يشبه الثّعلب

على جانب الطّريق السّريع، وبينما كنّا متّجهين إلى بيت عمّتي الذي يبعد ساعتين عن مكان سكننا، عثرنا عليه. كان حيواناً صغيراً لا أملك وصفاً له سوى أنّه يشبه الثّعلب، يتحرّك ببطءٍ في دائرةٍ ناظراً إلى الأرض تحته، كأنّه يبحث عن شيءٍ فقده، وحين لاحظ اقترابنا أنا ووالدي تسمّر في مكانه، كأنّه وجد ما يبحث عنه، ليدخل وحده إلى العلبة التي أحمل.

وضعناه في صندوق السّيّارة وصحبناه معنا في رحلتنا. كانت فرحتي عارمةً لأنّني سأظهره أمام أطفال العائلة، وسأخبرهم كيف اصطدتُه وحدي بلا مساعدةٍ من أبي. وعندما شاهدتْه العائلة، خاف الكبار منه أكثر من الصّغار، الذين اقتربوا بحرصٍ، ولمسوه لمساتٍ سريعةً حذرةً، سرعان ما تحوّلتْ إلى ربتٍ طويلٍ على فروه الدّافئ.

سأل الأطفال آباءهم عن نوعه، فلم يعرفوا، ثمّ سألوني عن الاسم الذي اخترتُه له، فأجبتُهم أنّني لن أسمّيه، إذ لا أشعر أنّه يحتاج اسماً، أو أنّه سيأبه به. شجّعوا بعضهم بعضاً، فكثرت الأيادي التي تضغط على جسده. استعدتُه منهم ممسكاً إيّاه برفقٍ، فأنزلتُه على العشب كي يستريح قليلاً، ويلعب بعد حبسه الطّويل في صندوق سيّارتنا.

لعبتُ بتناغمٍ مع الحيوان الذي لم يبقَ منه الآن في ذاكرتي سوى صورةٍ ضبابيّةٍ، كأنّنا صديقان منذ زمنٍ، وسط دهشة الجميع، الذين شاهدوا من بعيدٍ. كان يقلّد أفعالي، يركض عندما أركض، يقفز عالياً في مكانه مثلي، ويتبعني إلى أعلى الكتل التّرابيّة التي تحتاج منه التّسلّق لصغر حجمه. كنتُ أحمله في الهواء، فأصنع منه طائراً يخترق غيوماً من أوراق الأشجار، لأجعله يهبط على الزّحلوقة، فتتكفّل الجاذبيّة بوصوله إلى الأرض.

نادتني عمّتي كي أساعدها في حمل أطباق الطّعام. تبعني إلى الباب، فطلبتُ منه البقاء واللّعب مع ابنة عمّتي الصّغيرة. مشى معها فسررتُ أنّه فهم الأمر. وعندما عدتُ، وجدتُه مختبئاً في مساحةٍ ضيّقةٍ أسفل الدّرج. كانت ابنة عمّتي تحاول إخراجه، لكنّه بقي متأهّباً في مكانه، ينظر بقلقٍ إلى جانبه، حيث انتبهتُ إلى وجود حشرة «عصا موسى» السّوداء. أزحتُها بعيداً بغصنٍ صغيرٍ، وأخرجتُه جارّاً إيّاه برفقٍ من ذيله، فتشاركتُ معه طمأنينته.

تذكّرتُ -عندما تجمّعتِ العائلة حول المائدة- أنّه لم يأكل شيئاً منذ وصوله. وضعتُ له قطعة لحمٍ صغيرةً وماءً وحليباً، وراقبتُه وأنا أتناول طعامي. لم يقترب من اللّحم أو الحليب، لكنّه شرب بعطشٍ كبيرٍ الماء كأنّها مرّته الأُولى، فأحضرتُ له المزيد.

في المساء، لعبتُ كرة القدم مع الأولاد. أجلستُه على كرسيٍّ يسمح له بمشاهدة المباراة في موقعٍ يحميه من ضرباتنا. كانت حركة رأسه وهي تتبع الكرة أينما ذهبتْ، تشبه مدفعاً يحاول اصطياد القذائف العشوائيّة. لاحظتُ بعد ذلك أنّ حركات رأسه صارت أبطأ، وأنّه يمطّ نفسه إلى الأمام وهو يتثاءب.

تركتُ المباراة رغم اقتراب الفريقين من هدف الفوز. أعدتُه إلى علبته التي أكثرتُ فيها فتحات التّنفّس، وأغلقتُها ليتمكّن من النّوم، لكنّه بدأ بالتّحرّك والاصطدام بجوانبها. أزلتُ الغطاء فلم يوقف حركته. سقيتُه بعض الماء، وتذكّرتُ أنّ والدي أخبرني مرّةً أنّي لم أكن أستطيع النّوم في شهوري الأُولى، إلّا إذا حملني ومشى بي، وأنّه كان أحياناً يضطرّ إلى الرّكض حاملاً إيّاي، كي أتوقّف عن البكاء وأستسلم للنّوم.

صنعتُ له من قميصي سريراً، وأخذتُ أمشي وأركض به ممسكاً جسده برفقٍ. غطّ في النّوم بعد جهدٍ كبيرٍ. كان جفناه يتحرّكان بسرعةٍ، وتمكّنتُ بطريقةٍ غامضةٍ من النّفاذ إلى كابوسه، فشاهدتُ أمّه وهي تُدهس أمامه، فيطير جسدها في الهواء، ويهبط خارج مجال رؤيته، دون أن يقدر على اللّحاق بها خوفاً من نهر السّيّارات، الذي أجبره على الارتداد كلّما لامس حافّة الشّارع، كأنّه يصطدم بحاجزٍ مطاطيٍّ، فعلق حيث وجدناه، غير قادرٍ على المغادرة، كي يظلّ في النّقطة الأقرب إلى أمّه.

أدخلتُه في العلبة بهدوءٍ، أغلقتُها عليه، ووضعتُها في صندوق السّيّارة كي لا تزعجه الأصوات حولنا، أو توقظه عائلتي عندما تركب. ولمّا حان وقت العودة إلى البيت، شعرتُ أنّه لم يكن قادراً على النّوم. فتحتُ الصّندوق، فقفز قفزةً تعجّبتُ من ارتفاعها، فهدّأتُه بالرّبت عليه. حملتُه في علبته إلى المقعد الخلفيّ، وصنعتُ له من يدي شريك لعبٍ في الطّريق.

كنتُ أفكّر –وأنا أحسّ بضرباته تصطدم بيدي– أنّي سأتجوّل معه مستقبَلاً في الحيّ، بلا حبلٍ يقيّده، واثقاً بصداقته، وغير آبهٍ

بتحذيرات عمّتي من أنّه سيلتهمني وقتها، وأنّ حجمه الكبير سيجعلني أنتقم من الأولاد الذين اعتادوا مضايقتي.

وصلنا البيت في ساعةٍ متأخّرةٍ. لم تسمح لي أمّي بأن أبقيه في الدّاخل، فوضعتُه في شرفة غرفتي. أحضرتُ له حليباً ممزوجاً بملعقةٍ من العسل، وأخذتُ ألعقه أمامه، مشيراً إليه –مرّاتٍ عدّةً– أن يقلّدني، فتناول رشفاتٍ قليلةً.

كانت ليلةً ربيعيّةً، غطّيتُه بقماشةٍ خفيفةٍ، وتركتُ غطاء العلبة مفتوحاً. تمنّيتُ له أحلاماً سعيدةً، وذهبتُ إلى النّوم بسبب إلحاح أمّي، كي أستطيع الاستيقاظ باكراً للمدرسة.

تبعثْني أحلام يقظتي إلى المنام. رأيتُني أصعد على ظهره مرتدياً حقيبتي المدرسيّة، ليقفز بي من سطحٍ إلى آخَر. كانت الطّيور والطّائرات تحلّق حولنا، وكنتُ ألوّح للمسافرين وللنّاس في شققهم. هبطنا أخيراً على سطح مبنىً يطلّ على صفّي. قفزنا من نافذته التي اختفتْ قضبانها، محدثين صوت اصطدامٍ بالمقعد أخاف الجميع، ولم يجرؤ المعلم على التّعليق كعادته على وصولي المتأخّر. طردتُ شريكي في الدّرج، وأجلستُ الحيوان كبير الحجم قربي. ظلّ طوال اليوم يتحدّث معي بصوتٍ كالذي في الرّسوم المتحرّكة رغم شرح المعلمين، وكنتُ كلّ هنيهةٍ أغمزه، فيدير وجهه، ويصرخ في وجه الولدين السّمجَين خلف مقعدي، فينكمشان حتّى يصيران أصغر من حقيبتيهما.

ما إن فتحتُ عينيّ صباحاً، حتّى ذهبتُ إلى الشّرفة كي أتفقّده، لكنّه لم يكن هناك. بحثتُ عنه تحت القماشة والعلبة، وفي

الزّوايا الضّيّقة حتّى على النّمل، فلم أجده في أيّ مكان. كان كلّ شيءٍ على حاله، فازدادت حيرتي. وقفتُ على حافّة شرفتي في الطّابق الخامس، ونظرتُ إلى ما ظهَر من سطح العمارة، وإلى الشّرفات في الأسفل وساحة السّيّارات، دون أن أجده.

أيقظتُ أبي وأمّي صارخاً فيهما بوقاحةٍ بقيتْ داخلي من المنام، متّهماً إيّاهما بأخذه بعيداً في اللّيل، فأقسما لي أغلظ الأيمان، مذكّرَين إيّاي بالصّوت المرتفع الذي يصدره باب شرفتي وهو يُفتح، وبنومي الذي يزعجه الهمس.

فتّشتُ سطح المبنى، ثمّ أيقظتُ سكّان الشّقق تحتنا بالضّغط مراراً على الأجراس، كي أتفقّد شرفاتهم، غير آبهٍ بخجلي الذي كان يمنعني من دقّ بابهم عصراً. ومن الشّرفة الأرضيّة توجّهتُ إلى السّاحة، فبحثتُ تحت السّيّارات وداخل الزّوايا العديدة والحفر، وفي بقيّة طرقات الحيّ، حتّى وصلتُ الحرش القريب حيث تكثر أماكن الاختباء، لكنّني لم أعثر على أيّ أثرٍ له، رغم الوقت الذي قضيتُه هناك.

أجبرني أبي وأمّي، بعدما لحقا بي، على الذّهاب إلى المدرسة. قالا إنّهما سيكملان البحث عنه، وأكّدا براءتهما مجدّداً. فاتني باص المدرسة فأوصلتْني أمّي بسيّارتها. دخلتُ الصّفّ متأخّراً، ناظراً بعينَي الحيوان في المنام إلى المعلّم الذي همّ بالتّعليق، فسمعتُ صوت ابتلاع كلماته.

قضيتُ الدّوام كلّه وأنا أبحث عن تفسيرٍ لأمر اختفائه. لم أنظر إلى اللّوح، أو أستمع إلى الأصوات حولي، وتجنّبني الجميع كأنّ

الحيوان -الذي اختفى كقطعة نقدٍ سقطتْ في المحيط- لا يزال يجلس قربي. تكلّمتُ مرّةً واحدةً لأسأل في الفسحة معلّم الأحياء عن الأمر، فاستبعد عثوري على كائنٍ غامضٍ يشبه الثّعلب، يختفي بالطّريقة التي وصفتُها.

عاودتُ البحث مع أبي فور وصولي البيت. ذهبنا إلى أماكن أبعد، سألنا كلّ شخصٍ نجده في طريقنا. ولم أيأس من البحث إلّا عند انقضاء أسبوعٍ كاملٍ على اختفائه، مقنعاً نفسي أنّ طائراً جارحاً شاهده وانقضّ عليه، رغم أنّ الشّمس كانت قد بدأتْ بالإشراق حين تفقّدتُه.

* * *

ثلاثة أشهرٍ انقضتْ وأنا أفكّر في لغز اختفائه، وفي الأماكن العديدة التي لا بدّ أن يكون قصَدها، وكيفيّة تدبيره أموره.

وحين كنتُ مستلقياً على سريري أحدّق دون تفكيرٍ في السّقف، سمعتُ صوتاً قادماً من الشّرفة. فتحتُ الباب مسرعاً، فوجدتُه مضرّجاً بدمائه يزحف نحو علبته المفتوحة. كان أكبر حجماً من السّابق، بمخالب بارزةٍ وفروٍ يعجّ بالجروح والكدمات، ولم تترك قطرات دمه خلفه أثراً يدلّ على طريق عودته.

جلستُ على الأرض قربه محدّقاً في عينيه اللّتين ازدادتا سواداً، ونبضتْ كلٌّ منهما كقلبٍ يتكفّل بجسدين. بدأ يهمهم بصوتٍ متعبٍ لا يشبه الصّوت الذي تخيّلتُه له، كأنّه يحاول إخباري

قصّة اختفائه، ولم أستطع النّفاذ إلى الكلمات رغم الجهد الذي بذلتُه في اختراق الحاجز.

كان يحتضر قرب يدي الخائفة من أن تمسّه، وكنتُ أنتظر بفارغ الصّبر انطفاء همهماته التي بدأتْ تخفت شيئاً فشيئاً. وعندما لم يعد قادراً على الاستمرار أكثر، ألقى عليّ نظرةً أخيرةً بدت امتداداً لقصّته، أعادت صمت الأشهر الماضية إلى الشّرفة التي كانت في أبعد مسافةٍ عن اسمها.

حملتُه بيديّ المرتعشتين، وضعتُه في العلبة التي لم تعد تناسب حجمه، وأغلقتُها عليه. أخذتُه إلى الحرش القريب، ودفنتُه قرب شجرةٍ في مكانٍ يصلح للاختباء، دون أن أخبر أحداً بأمر عودته.

أحياناً كثيرةً، وأنا أعبر الطّريق قرب الحرش، أشعر برغبةٍ في أن أخرجه من التّراب، لعلّ خيالي يصنع من هيكله العظميّ صورةً له أوضح من تلك التي في ذاكرتي، لكنّي أعلم أنّي حين سأفتح العلبة لن أجده.

ما تبقّى له

أخبره أبوه أنّ لجنة العمارة اجتمعتْ وقرّرتْ منع الأولاد من اللّعب أمام المبنى. كان يخاف والده، ولو أنّ أمّه هي التي أخبرته بالأمر، لصرخ حتّى الصّباح. تظاهر بأنّ الأمر لا يعنيه وقال:

– كبرتُ ولم أعد أُحبّ اللّعب في الحارة.

تظاهر بالنّعاس وذهب إلى غرفته. وتحت اللّحاف، أفرغ كلمات أبيه دموعاً، لو رأتها أمّه لظنّت أنّه عاد يتبوّل في اللّيل من جديدٍ.

كان قد واعد أصدقاءه على رحلةٍ إلى «الغابة» المجاورة كي يحقّقوا في الملابس التي وجدوها على الأرض، والتي ظنّوا أنها لأسرةٍ قتلها سفّاحٌ هاربٌ. وحين تعب من البكاء، استسلم للنّوم في دموعه كقاربٍ صغيرٍ تحرّكه رياح الأحلام.

حلم بمطاردة السّفّاح لهم بعد أن اكتشفوا مخبأه السِّرّيّ. كان يركض اللّيل كلّه، حتّى وصل كهفاً اختبأ فيه. هناك، تجلّى له ملاكٌ في صورةٍ رآها في كتاب قصصه حين كان أصغر، عندما كانت أمّه تروي له قصصاً عن الملائكة. سأله:

– ماذا تريد يا صديقي؟

فأجابه:

– أريد أن أعود إلى اللّعب.

فأزال الملاك ريشةً من أجنحته وثبّتها في ظهره، وقال له:

– إذا كنتَ ولداً طيّباً فستكبر الرّيشة وتصير أجنحةً تمكّنك من الطّيران، وستحصل على أشياء أخرى سيكون عليك اكتشافها بنفسك.

كان ذلك الأسبوع أهدأ أسبوعٍ في حياته، شابهتْ كلماته كلمات أميرٍ يقتني اللّوحات. يبدأ طلباته بـ«من فضلك»، يختم جمله بـ«شكراً جزيلاً» و«أتمنّى لكم وقتاً سعيداً». كان يشعر بالرّيشة تكبر رويداً رويداً على ظهره، كبذور العدس في الصّحن في تجربة حصّة العلوم.

ظنّته أمّه مريضاً، أنّ بقاءه في البيت أتعب صحّته، فطالما تأثّرت مناعته بمزاجه. أرادت أن تكسر الحظر المفروض على لعب الأطفال رغم ازدياد الغسيل.

تحدّثتْ مع زوجها، فافتخر أنّه كان صاحب القرار، ليحمي الأولاد من الشّارع، وينعم السّكّان بالهدوء. قال لها:

– انظري كيف حوّل قراري ابنك الشّقيّ إلى طفلٍ تربّى في القصور على عزف البيانو في أسبوعٍ لا أكثر.

أخيراً، استيقظ على اكتمال نموّ أجنحته. وحين جرّبها كان معتاداً على الطّيران، إذ كان يتعلّمه كلّ ليلةٍ في منامه.

كان يصرخ كصراخه في مدينة الألعاب، حين يسرع القطار به ويصعد المرتفع المعدنيّ. أيقظتْ أصواته أمّه فهرعتْ إلى غرفته فاتحةً بابها، عندها انكمشتِ الأجنحة بسرعةٍ وبدا كأنّه كان يقفز على السّرير.

– أتعرف كم السّاعة الآن؟

– العاشرة؟

– لا، الخامسة! ما الذي أيقظك مبكّراً واليوم عطلة؟ أيؤلمك شيء؟

– حلمتُ أنّي أطير، ثمّ تخيّلتُ نفسي أطير وأنا أقفز على السّرير.

ازدادتْ مخاوفها. عانقتْه، وقالت إنّها ستأخذه مع أولاد خالته إلى مدينة الملاهي.

كان أوّل الواصلين –كلّ يومٍ– إلى البيت، إذ تعمل أمّه معلّمةً في مدرسةٍ بعيدةٍ، ويعمل أبوه حتّى المساء في محلّه التّجاريّ.

صار البيت ملعبه، يوسّعه كما يشاء. تمنحه أجنحته القدرة على التّقلّص ومنح الأشياء حياة. يكفي أن ينتف ريشةً منها ويحرّكها على دميةٍ، حتّى تبدأ بالتّحرّك والحديث معه. كان يشارك في رحلاتٍ في الأدغال مروّضاً الدّيناصورات التي أعادها من الانقراض. يطير فوق جدران قلعة «اللّيغو»، ينقضّ على الجنود المدجّجين بالعتاد، ويحرّر الأميرة المسجونة. يدخل من فتحة البالون، ينفخه بريحٍ من أجنحته، ويشاهد البيت كأنّما يلبس نظّارةً ملوّنة. وعندما تعود أمّه، يدلّها على الغبار في أماكن لا تطالها قامته القصيرة.

مع الوقت، ازداد انعزاله في غرفته، وصمته، وهذيانه في اللّيل، فازداد قلق أمّه، وإلحاحها على أبيه كي يسمح للأولاد باللّعب.

استدعتها مديرة مدرسته، وأخبرتْها بأنّه «يرعب» الأطفال الأصغر سنّاً بقصصه عن الشّياطين، وبأنّه لا يختلط مع أترابه، يظلّ شارد الذّهن طوال الوقت، ولا يعير كلام المعلّمة انتباهاً. قالت لها:

- هو في سنٍّ لا تسمح له بذلك. هذه الأوهام يتخيّلها طلّاب الرّوضة فقط!

أعطتها رقم طبيبٍ نفسيٍّ، وهمستْ:

- اعرضيه على شيخٍ أفضل.

في طريق العودة، كانت نظرات أمّه وأسئلتها الغريبة الأشبه بأسئلة الاستجوابات تثير ريبته. تشاجرا عندما وصلا البيت، وهدّدتْه -في لحظة غضبٍ- أنّها ستشكوه لأبيه إن لم يقلع عن تصرّفاته تلك. ذهب إلى غرفته متذكّراً المطاردة في المنام، وهروبه إلى فتحة الكهف حيث رأى الملاك.

في غرفته كانت النّافذة مفتوحةً. أطلق أجنحته وطار منها، فهاجمتْه طيور الحيّ، إذ لم تشاهد طائراً بهذا البياض من قبل. أوقعتْه أرضاً إلى السّاحة حيث كان يلعب رفقة أصدقائه.

بعدها، عندما بدأ بالاستيقاظ في المستشفى، سمع الأطباء يخبرون أمّه أنّه سيعاني من أثر السّقوط مدى الحياة... وأنّ الأمر سيكون صعباً في البداية، لكن عليهم أن يساندوه. كانت أمّه تحدّق فيه باكيةً دون أن تعلم أنّه يتظاهر بالنّوم، بينما لاحظتْ شعراً خفيفاً يحفر بصمت.

بيوتٌ تطارد ساكنيها

أصوات البيت السّفليّ

أخبرتْ سارة أمجد أنّها تسمع أصواتاً في اللّيل من نافذتها. كان هو الشّخص الوحيد الذي تخبره كلّ ما يحدث لها، فهو ابن خالتها الذي نشأ معها منذ كانا في القماط، والذي تبادله إعجاباً يحاولان مقاومته، وهو يصدّق جميع قصصها مهما اشتدّت غرابتها، فحتّى أخوها آدم -الذي يصغرها بسنتين- سخر منها عندما سمعها تتحدّث إلى أمجد عن الأصوات، متّهماً إيّاها بالإكثار من التّهيّؤات.

كان منزل سارة المكان المفضّل لدى أمجد، فهو مقامٌ على قطعة أرضٍ كبيرةٍ ذات أشجارٍ كثيفةٍ، وأحواضٍ طويلة العشب، يحتوي على مساحاتٍ ضيّقةٍ، ومظلّاتٍ حجريّةٍ سهلة التّسلّق، وشرفاتٍ يُصعَد إليها بدرجٍ معدنيٍّ. فكان يشكّل مسرحاً مثاليّاً للألعاب، وبخاصّةٍ لعبة الاستغمّاية، التي كانا يشعران أنّ المنزل يلعبها معهما، لتكوّنه من طابقين، السّفليّ منهما مهجورٌ لم يسبق لهما دخوله.

وكانت سارة تشعر بوجود خيطٍ غامضٍ يربط بين الأصوات -غير مفهومة الكلمات- والبيت السّفليّ، وترى أنّها ترتبط كذلك بأمجد، فكلّما ازداد إعجابها به، تكاثرتْ أكثر، حتّى بدا لها أنّ سريرها يطفو كجزيرةٍ ضائعةٍ على سطح بحرٍ من الصّرخات.

اتّفقتْ سارة مع أمجد على تفقّد البيت السّفليّ، الذي كانا يستطيعان مشاهدة إحدى حجراته الخالية من نافذةٍ مفتوحةٍ بقضبانٍ حديديّةٍ، تطلّ على ساحة المنزل الرّئيسيّة، وتقع تماماً تحت نافذة غرفتها. ولكي لا يتراجعا، قام أمجد برمي الدّمية القديمة من النّافذة باتّجاه نصف الحجرة شبه المظلم، المجاور لنصفها الآخَر الأبعد الغارق كلّيّاً في الظّلام، فهذه الدّمية شديدة الأهمّيّة لهما، ينسيان نفسيهما كلّما لعبا بها لعبة «الأمّ والأب»، متخيّلَين إيّاها طفلتهما الرّضيعة، وقد عثرتْ عليها والدة سارة إثر انتقالها إلى بيتهم هذا بعد زواجها.

كان عليهما قبل ذلك سرقة مفتاح البيت، الذي خبّأه والدها في الرّفّ العلويّ لخزانة ملابسه، كأنّه أراد إبعاده عن يدها. لم تكن سارة تعرف أين المفتاح، لكنّ حدسها أخبرها أنّ عليها تفقّد ذلك المكان قبل غيره.

تسلّل الأطفال الثّلاثة إلى غرفة والديها، ولم يثيروا أيّ جلبةٍ تشدّ انتباه الأمّين المشغولتين في المطبخ. اختبأ آدم -الذي رضخ لهما بحكم فارق السّنّ- في مكانٍ يسمح له بالمراقبة وتحذيرهما عند اقتراب إحدى الأمّين.

قرّبتْ سارة كرسيّ مرآة والدتها من الخزانة وتسلّقتْه مع أمجد. كان الرّفّ العلويّ الممتلئ بكنزات الشّتاء لا يزال بعيداً عن أصابعهما، فشبك -دون كلماتٍ- يديه صانعاً أرضاً صغيرةً تتّسع فقط لإحدى قدميها، فوقفتْ حافيةً عليها، تاركةً قدمها الأخرى تتأرجح في الهواء. استندتْ بإحدى يديها على حافّة الرّفّ، ووضعتِ الأخرى تحت أقرب كنزةٍ، حيث عثرتْ على المفتاح من أوّل محاولةٍ.

كان المفتاح المصفرّ قليلاً بارداً رغم مكوثه الطّويل أسفل كنزات الصّوف. ولمّا شاهد أمجد المفتاح في يدها، أحسّ بضيقٍ شبيهٍ بذلك الذي يشعر به تحت نظرات والدها، ضيقٍ فاقمتْه سارة التي تسمع أحياناً أصوات أهل البيت مهما اشتدّ خفوتها، إذ أخبرتْه أنّ أباها قال لأمّها إنّه لا يحبّه، وإنّه يرغب بأن تقلّل الأمّ اجتماعهما، دون أن يعرف سبباً وجيهاً لمخاوفه.

خرج الأولاد بالطّريقة ذاتها التي تسلّلوا بها. وفي السّاحة، طلبا من آدم مشاركتهما اكتشاف البيت، فرفض ذلك لخوفه من الأماكن المظلمة، وقال إنّه سيقف قرب نافذة الحجرة حيث يستطيع مشاهدة الدّرج العلويّ على يساره، والبوّابة الرّئيسيّة على يمينه، ليحذّرهما من النّافذة إن اقترب شخصٌ ما. ولم يشأ أمجد وسارة –اللّذان احتاجا أن يكثرا عددهما– تضيعة المزيد من الوقت في إقناعه، فنزلا وحدهما.

وقفا أمام الباب الذي بدا أنّه لم يُفتح أبداً. تبادلا صامتين نظرةً من التّشجيع، ثمّ وضعا معاً المفتاح في القفل الكبير المتيبّس، فاضطرّ أمجد إلى بذل جهدٍ لم يعرف من أين استمدّه، مستخدماً ركبته في ضرب الباب كي يستطيع تحريك المفتاح العالق. وبعد أن تمكّن أخيراً من تحريكه، فُتح الباب وحده، فأجفلهما صريره الشّبيه بصوت فيلٍ اقتُلع ناباه.

كان البيت مضاءً بالنّور الذي عبر الباب، ما شجّعهما على الدّخول بسرعةٍ مؤجّلَين التّحديق في التّفاصيل. وحين أصبحا في مركز الصّالة بدآ النّظر، كأنّ عينيهما استعادتا الإبصار لحظتها.

لم يكن البيت يشبه أبداً تصوّرهما عنه، فلم يعثرا على أشباحٍ تتحرّك في الظّلمة، أو أثاثٍ قديمٍ يتكدّس الغبار عليه. كان مكاناً لم

يكتمل بناؤه بعد، بلا بلاطٍ، أو طلاءٍ، أو فتحات أبوابٍ تسمح بالدّخول إلى حجراته، إذ سدّتها حوائط لا يشبه شكلها الجدران حولها، عازلةً قلب البيت عن بقيّة أعضائه.

بعدها، انتبها إلى خيطٍ نحيلٍ من الماء يكاد لا يُرى، يتسرّب من تحت الحائط أمام الحجرة التي رميا فيها دميتهما. لكنّهما رغم ما شاهداه، لم يشعرا أنّ البيت الصّامت ساعدهما على حلّ أيّ لغزٍ، فقرّرا الانتظار لعلّ شيئاً ما يحدث.

كانت سارة تتّكئ من الخلف على ظهر أمجد، واضعةً يدها على كتفه. تسمّرا في مكانهما كأنّهما اصطيدا من نهر الوقت. وبعد أن ملّا الانتظار، انسحبا بهدوءٍ متراجعَين إلى الخلف، دون أن يعطيا البيت ظهريهما.

أغلقا الباب بسهولةٍ جعلتْهما يظنّان أنّ المفتاح تحرّك وحده. صعدا الدّرجات الثّلاث المؤدّية إلى السّاحة الرّئيسيّة. كان آدم ينظر من النّافذة مرتعشاً، دون أن يحسّ باقترابهما إلّا بعد أن لمسه أمجد، فارتدّ إلى الوراء مبتعداً عنهما، فانتبها إلى دميتهما بين يديه وقد أصبحتْ بلا عينين. وقبل أن يسألاه عن الأمر، بدأ بالتّكلّم قائلاً:

– كيف خرجتما بهذه السّرعة؟ ألم ترميا الدّمية نحوي من الحجرة قبل لحظاتٍ قائلَين «إيّاك أن ترميها مرّةً أخرى» وأنتما تتراجعان بعيداً إلى الظّلام؟ أين ذهبتما بألوان الماء التي صبغتْ وجهيكما؟ ولماذا تحبّان إخافتي دائماً؟

كانا يستمعان بصمتٍ إلى حديثه، بينما أخذتْ يد سارة تشدّ بقوّةٍ أوجعتْ كتف أمجد.

الشّرفة التي تطلّ على الأزرق

أجلس منذ الصّباح على سطح الجيران المطلّ على بِركة البيت الذي لم يعد بيتنا. أقضي وقت المدرسة هنا، فمدرستي الجديدة لا تكترث بطلّابها مثل القديمة.

أعود إلى مكاننا الجديد وقت الغداء، أفتح دفاتر مليئةً بالخربشات أمام أمّي، قائلاً لها إنّني حللتُ وظائفي، فتسمح لي بالذّهاب دون أن تتكلّم، ودون أن أشعر أنّها تراني حقّاً، فلم تعد أمّي ذاتها منذ تركنا بيتنا القديم، فأرجع بسرعةٍ إلى مكاني هذا.

ولأنّي أمتلك الكثير من الوقت قبل أن يعود الملّاك الجدد من أعمالهم، وأطفالهم من مدارسهم، فسأحدّثكم عن بيتنا (لا أزال أسمح لنفسي بتسميته كذلك)، وعن أكثر الأشياء التي أُحبّها فيه. ولأنّي أجد صعوبةً بالغةً في إدراك أيّ قطعةٍ أُحبّ أكثر، فسأجعل الحديث يتدفّق وحده منّي، دون أن أضبطه بقيود التّفضيل أو الأهمّيّة.

لكن قبل ذلك، دعوني أخبركم عن المكان الذي أجلس فيه قبل أن تستغرقني الذّكريات فأنسى. أنا أجلس على سطح بيتٍ غير مكتمل البناء، خلف شِبه جدارٍ ينشز عن مظهر السّطح، بفتحةٍ في منتصفه تعينني على أن أكون لامرئيّاً وقت التّجسّس.

هذا المبنى يشبهني، بنته العانسات الثّلاث (كما يطلق رجال حيّنا السابق عليهنّ) لأخيهنّ المهاجر. بنينه حجراً حجراً من دخل الخياطة والبقّالة قرب بيتنا، دون أن يكتمل منذ عشر سنواتٍ، فظلّ عظماً بلا لحمٍ، لأنّ الأخ المسكين ترك الحياة أيضاً كما تركهنّ.

أنا هنا على السّطح المجاور لحياتنا السّابقة، أجلس ساعاتٍ كلّ يومٍ. أشعر أحياناً أنّي هنا منذ أسابيع، لكنّ ذلك مستحيلٌ على طفلٍ لم يبلغ العاشرة بعد، كأنّ الوقت لا يمرّ عليّ كما الآخَرين. وأحياناً كثيرةً تحتلّ التّفاصيل الغائرة في ذاكرتي المشهد أمامي، وتصيبني أحياناً أخرى فترات عماءٍ حين يخلد السّكّان الجدد إلى النّوم، ولا يتركون مصباحاً واحداً مضاءً في الخارج.

لكن، ها أنا كعادتي الجديدة أنسى ما بدأتُه، أشذّ عن الموضوع، أو أكرّر الأفكار نفسها بصياغةٍ أخرى (كما في الفقرة الأخيرة)، إذ اكتشفتُ مؤخّراً لعبة اللّغة، أصبحتُ أسلّي نفسي بإنهاك المعنى بالصّياغات العديدة، أصبحتُ أعزّيها بتكرار المفردات الموحي بالدّوام.

فدعوني إذن أعود للحديث -كما قلتُ سابقاً- عن أكثر ما أُحبّ في بيتنا. إنّ بيتنا مليءٌ بالقناديل، فقد كان أبي تاجر تحفٍ يجلبها معه من سفراته العديدة، وإنّ أجملها ثلاثة قناديل ساحرةٍ انتقاها خصّيصاً لمنزلنا من المغرب.

علّقنا قنديلين توأمين خارج البيت في المظلّة الحجريّة التي تصنعها شرفة غرفة أبي وأمّي المطلّة على المسبح. كنتُ أحرص أن أضيئهما دائماً في اللّيل حين ينام أبي ناسياً عادته في ترك ضوءٍ للخارج. وعلّقنا القنديل الآخَر -الأجمل دون شكٍّ- داخل منزلنا كي نقيه الرّيح.

كانت الرّيح تهبّ، فيتأرجح ضوء التّوأمين فوق الأشياء، ما يجعلني أعزل وجودهما، فأنظر إلى الرّيح والضّوء معاً، فأشاهدها تحرّك الضّوء مباشرةً، يحرّك الهواء شبه الماديّ اللّامادِيَّ الأصفر المنبعث من المصباحين.

لكن اسمحوا لي أن أقطع مؤقّتاً الحديث عن القناديل، وأن أحدّثكم عن المرآة التي تذكّرتُها الآن، والتي تلحّ عليّ أن أتحدّث عنها، إذ تعرف المرآة مدى سوء ذاكرتي في الآونة الأخيرة. ولا شكّ أنّي لن أنسى القنديل الآخَر حين أتحدّث عنها، نظراً للتّجانس الكبير بينهما.

كانت المرآة الواقعة أمام الدّرج مزخرفةً بالفنّ العربيّ. كان يفرحني نزولي من الطّابق العلويّ على الدّرجات الواحدة والعشرين، حتّى أشاهد فيها نفسي بتحبّبٍ.

كان إطارها المربّع ذهبيّ اللّون، يحضن في الزّوايا الأربع قطع بلاطٍ يختلط فيها التّركواز باللّازورد، تعرّش فوقها ورودٌ حلم بها أطفالٌ مكفوفون ينامون في الحدائق، وتتمايل أعناقها الشّبيهة بخصور الرّاقصات حول أشكالٍ هندسيّةٍ زاخرة الألوان تشاكس المربّع، ثمّ تلتقي القطع الأربع معاً (كأنّها تعيد اللّقاء كلّما نظرتُ إليها) مشكّلةً ما يشبه نجمةً زجاجيّةً تعكس عالماً آخَر أكثر كثافةً، فيُخيَّل إلى النّاظر أنّ الصّورة-اللّوحة داخل المرآة -إذا ما قورنتْ بما خارجها- هي الحقيقيّة دون ريب.

كان الدّرج يقع قرب المطبخ المفتوح، يفصلهما جدارٌ صغيرٌ يحرس السّلام بينهما. كنتُ أستلقي على ظهري تحت أنظار المرآة، فوق المصطبة الضّيّقة التي بالكاد تسع جسدي، أحدّق في القنديل

المعلّق في أعلى سقف الدّرج، مشتمّاً روائح الطّبخ الشّهيّة تنبعث من يدَي أمّي. كان قنديلاً عتيقاً، كأنّه وُلد من بنات أفكار صانع المرآة، محفوراً بزخارف هندسيّةٍ تشبه أشكال أوراق الأشجار التي تسقط قبل غيرها أوّل الخريف، ومنقوشاً بألوانٍ زرقاء وخضراء وحمراء تتراصّ قرب بعضها البعض، راقصةً بلا حركةٍ في دائرةٍ سوداء عميقةٍ، يُخيَّل إليّ أنّها قادرةٌ -إذا سقط المصباح- على أن تُغرق الكون داخلها كقطرةٍ في بحرٍ سرمديّ.

كنتُ أتمدّد على ظهري ساعاتٍ. أحدّق كعاشقٍ في بهاء سقف منزلنا، وبالشّمس المموّجة التي يعكسها ضوء القنديل المزخرف، والتي تغطّي السّقف كلّه حتّى باب القرميد المعلّق.

كانت غرفتي هي الغرفة الوحيدة بالطّابق الأوّل. كنتُ أشعر أنّها بيتٌ داخل البيت، فأنا أمتلك باباً خاصّاً شبيهاً بنافذةٍ، يطلّ مباشرةً على المسبح. ففور استيقاظي كنتُ أفتح النّافذة-الباب، وأجد نفسي وجهاً لوجهٍ قبل الجميع أمام الماء الأزرق الشّفّاف، الذي ينادي كلّ خليّةٍ في جسدي. بعد ذلك أعود إلى حجرتي، أفتح نافذتي الشّرقيّة وبابي الخشبيّ معيداً غرفتي إلى البيت، فيلتقي كلّ شعاع شمسٍ بأخيه القادم من الجهتين الأخريين.

وكنتُ أُحبّ الدّخول من النّافذة التي لا تمتلك قضباناً حديديّةً، والتي كنتُ أضع بقربها في الخارج درّاجتي الهوائيّة، التي أركبها وأنا منقسمٌ بمهارة النّافذة إلى شخصين، أحدهما في الدّاخل، والآخَر في الخارج، سرعان ما سيتّحدان مجدّداً في الهواء على مقعد الدّرّاجة.

كانت البِركة امتداداً لسريري، تقع أمامه مباشرةً مشاركةً إيّاه لحافه الأزرق، ذلك الذي تسبح فيه الدلافين الصّغيرة مقلّدةً والديها

المصنوعَين من خلايا الفسيفساء الزّرقاء في القاع. كان الوالدان يحملانني على ظهريهما حين كنتُ ألمسهما بأصابع قدميّ خائفاً في أوّل الماء، يأخذانني في رحلةٍ إلى أعماق بِركتنا، ويعلّمانني السّباحة على مهلٍ كأبٍ يعلّم ابنه ركوب الدّرّاجة.

كانت طيورٌ سوداء لا أعرف اسمها تأتي وتشرب وأنا أسبح دون أن تخاف منّي، فقد ألفتْ وجودي بعد أن اعتادتْ مشاهدتي كلّ يومٍ. وحين أنتهي من السّباحة كفرخ دلفينٍ طوال النّهار، كنتُ أجلسُ في اللّيل مع كوب شايٍ في يدي، محوّطاً بمعطفي على الأرجوحة الواقفة قرب باب غرفتي، كأنّي بيضةٌ في عشّ طائر الفرنار أحمر الطّين، هازّاً عشّي كلّ هنيهةٍ كي أطرد بقايا البرد، ومراقباً أضواء القنديلين الشّبيهة بمراكب صيدٍ كبيرةٍ على سطح الماء، والقوارب الصّغيرة المصنوعة في دوائر القرميد.

كانت تهبّ أحياناً ريحٌ قويّةٌ تضرب الماء مباشرةً مولّدةً أمواج المدّ، فأشعر بأنّنا نمتلك بحراً في فناء بيتنا، يحميني من غضبه معطفي، ووسادات الأرجوحة الواقفة في مكانٍ لا تضربه العاصفة.

حينها، أنفخ في الشّاي السّاخن جدّاً، كي أشعر -عندما أشاهد اهتزاز الماء المنقّط بالضّوء في كأسي- أنّي أنفخ في بِركةٍ صغيرةٍ بين يديّ، متّحداً مع الرّيح التي تُغرق في الوقت ذاته مراكب الصّيد، والزّوارق الصّغيرة في بحرنا.

ها قد عاد سكّان منزلنا، فالأمّ تفتح شبابيك شرفة والديّ. كيف مرّ الوقت بهذه السّرعة؟ إنّها ترتدي ثيابها التي لا أُحبّ ملمسها ولونها، فثيابها من قماشٍ خفيفٍ صارخ الألوان يتسلّل

الهواء منه بسهولةٍ، تناسب أثاث الغرفة العصريّ، أمّا ثياب أمّي فمن صوفٍ يكمّل الأثاث القديم ذا الخشب السّميك.

أتذكّر تمدّدي على ثيابها في الخزانة الكبيرة التي كنتُ أختبئ بها إذا أردتُ الجلوس مع نفسي، أو العبور إلى عالمٍ آخَر انطوى داخلها لا يعرف غيري بوجوده.

وحين كانت أمّي تضيء الشّموع في غرفتها، كانت قطع الأثاث تتحدّث مع بعضها البعض، إذ تكتسب أفواهاً من انعكاس اللّهب المرتعش على خشبها البنيّ. انظروا جيّداً إلى لهب الشّمعة، ألا يشبه شكل فمٍ؟ أطيعوا خيالكم قليلاً لترسموا لساناً وشفتين إذا أردتم، أمّا قطع أثاثنا فقد كانت تتحدّث بلا صوتٍ، وإذا ما احتاجت إلى المجاز، فبوسع أمّي بثيابها الصّوفيّة أن تكون استعارةً.

أراهم الآن يُخرجون المرآة، لطالما سمعتُ المرأة تطلب من زوجها تبديلها. لا شكّ أن مرآتنا الوفيّة لا تزال تعكس -بين الفينة والأخرى- ظلالاً لحياتنا السّابقة، فاختارت تلك المرأة -التي لا تريد سوى انعكاسها- أن تضع مكانها ببّغاءً مزعجاً يقلّد برداءةٍ رتيبةٍ المشهد أمامه.

هي تظنّ المرآة مجرّد ديكورٍ تستطيع تغييره متى تشاء، لا تأبه لشعور القنديل، ولا تعرف أنّ المرآة فردٌ عائليٌّ يحفظ كغيره تناغم الأشياء. لذلك، أشعر بالخوف على المنزل، فكلّ قطعةٍ فيه تشبه آجرة الخورنق، إن أزيلت تهاوى بلا شكٍّ ولو بعد حينٍ.

كانت قصّة سمنار (بالرّواية الخاصّة بمنزلنا) حكايتي المفضّلة من الحكايات العديدة المليئة بالشّعر، التي كانت أمّي تقصّها

عليّ بعد أن تتناول كتاباً من مكتبتها المحفورة في خشب سريرها. أخبرتْني القصّة -أوّل مرّةٍ- حين كنتُ طفلاً مشاغباً يزيل الأشياء من مكانها، فلم أجرؤ من وقتها على اللّهو بنظام البيت. وأسمعها، بينما أتحدّث إليكم، تُنشَد بغضب القنديل ذي الدّائرة السّوداء الذي يهتزّ فوق الفراغ الأبيض الذي خلّفته المرآة.

لقد خرج الطّفل الذي يماثلني في السّنّ كي يلعب كعادته على درّاجته بعد الغداء (لن أعود اليوم إلى الغداء، كعادتي في كلّ يوم يسبق العطلة الأسبوعيّة). فيما مضى، كنتُ أركب درّاجتي مسرعاً حول البِركة، فأشعر بلذّة ملامسة السّقوط.

لطالما فكّرتُ -وأنا أقترب مسرعاً بدرّاجتي من المسبح- ألّا أتوقّف. كنتُ أحلم بقيادتها وبتبديل الدّوّاستين في الماء، لكنّي لم أفعل ذلك قط، ربّما بسبب الخوف على درّاجتي من الصّدأ، من الشّيء نفسه الذي يأكلها الآن على مهلٍ مع أخواتها في الشّرفة الضّيّقة للشّقّة.

إنّني أكره هذا الولد الغبيّ متبلّد الإحساس، إذ كان يركض حول البِركة بفرحٍ ساذجٍ حين سلّم أبي مفتاح البيت لأبيه والدّموع في عينيه. كان أبي هو الذي صمّم منزلنا، كان يقول لي -وهو يحملني على كتفيه كي ألمس القناديل- إنّ البيت انتقل من رأسه إلى أرضٍ خاليةٍ ورّثه إيّاها جدّي، فتشعرني هذه الصّورة بالنّشوة والدّوار تحت الأضواء، إذ أستشعر اللّانهاية كلّما تخيّلتُ أبي يمشي في بيتٍ موجودٍ داخله.

لذلك أنفخ على الطّفل الذي يحتلّ غرفتي كلّما اقترب من الماء، وتمايلتْ درّاجته بحيث تبدو للنّاظر أنّها تحتاج مجرّد نفخةٍ صغيرةٍ كي

تقع. أنفخ بكلّ قوّتي، محاولاً استعادة اتّحادي مع الرّيح، كي يسقط في الماء الأخضر الكريه الذي تحتلّه الطّحالب، فلا أحد يفهم مزاج بركتنا كأبي، الذي يمتلك مهارة رعايتها (كي لا أقول ترويضها).

فالبِركة كائنٌ أثيريٌّ يحتاج إلى عنايةٍ بالغةٍ، كأنّكم تمتلكون حقلاً مزروعاً بالماء، إذا أهملتم أشجاركم ستنهشها الأمراض وتحتلّها الحشرات وتسقط أوراقها، وإذا أهملتم بركتكم ستغرق في نفسها المخضرّة من غزو الطّحالب والكائنات الدّقيقة.

أنفخ فأجد نفسي أمام شموعٍ مضاءةٍ أمام المسبح، أصير جسداً تحيطه هالةٌ من الضّحكات شبيهةٌ بهالة الأولياء. ها هم يحتفلون بعيد ميلادي، يحتفلون بالمباني التي سأصير في الغد حجارتها، كأنّ الأرض لولاي ما أتمّت دورتها حول الشّمس!

أشعر أحياناً أنّ هذا الولد يستطيع رؤيتي، إذ ينظر بغرابةٍ نحو موقعي، لكنّي لا أهتم بذلك، فلا أحد يصدّق خيالات الأطفال. وأنا أتمنّى أن يراني فعلاً، لعلّه يدرك أنّه لا يشبهني، فقد سمعتُ أبي يقول لأمّي إنّه شاهد شبهاً كبيراً بيننا.

فهذا الولد –على عكسي– يخاف النّوم في العتمة، وكلّما ضربتُ ببقايا حجارة البناء الماء أمامي ونافذة غرفتي، بعد أن أختار أخفّها ضرراً على الأشياء وأكثرها امتلاءً بالنّتوءات، أشاهده من طرف النّافذة المفتوحة يختبئ تحت اللّحاف وهو يرتجف كمن أصابته حمّى.

وهو أيضاً طفلٌ بليدٌ لا يطيع والديه حين يطلبان منه التّكنيس. أما أنا فكنتُ في سريري أصفّر لمكنستي الخاصّة، فتحلّق فوق الماء كي تدخل من النّافذة، تحملني كالسّاحرة فألمس في الأعلى

الهواء المنعش، والمثقل بروائح موسم التّزاوج والأسمدة، وأبحث بعُقابين في عينيّ عن حُبيبات الرّمل والتّراب، كأنّها نثار ذهبٍ أو معدنٍ لم يُكتشف بعد.

كنتُ أخبّئها في علبةٍ كبيرةٍ (أنقذتها من القمامة قبل أن تلقيها أمّي)، لأوزّعها حين أنتهي على أحواض الشّجيرات، فأوفّر مالاً على والدي، إذ سمعتُه يتحدّث عن سعر التّراب الذي تغزوه الحبال السُّرّيّة لنباتاتنا الآن في جسدي.

وهذا الطّفل المدلّل لا يجيد القفز في البِركة أبداً، يقف على الحافّة متردّداً، ينزل ساقيه بالماء، ثمّ يدفع بقيّة جسده، موحياً لنفسه أنّه قافزٌ ماهرٌ مثلي، فأنا كنتُ أجيد جميع أنواع القفز، من كلّ مكانٍ حول المسبح، وبخاصّةٍ قفزة الرّأس في الماء أزرق الشّفتين شتاءً، ما يجعل أعضائي الدّاخليّة تتجمّع حول نارٍ توقدها صدمة البرودة.

وذات يومٍ، بينما كنتُ أسبح على ظهري مع موجات الطّيور المهاجرة في السّماء، خطر لي أن أقفز من شرفة أمّي المطلّة مباشرةً على البِركة. وحين حاولتُ ذلك، شدّتني ذراعها وأنا أهمّ بالقفز. أخذتْ تصرخ بي باكيةً وهي تضربني لأوّل مرّةٍ وتحتضنني في الوقت ذاته، ثمّ أوصدتِ الباب بالمفتاح وخبّأتْه.

وقالت –حين سألتُها عنه– إنّها أخذتْه إلى حدّادٍ حطّمه أمامها، لكنّني لم أصدّقها على غير عادتي، مدفوعاً بالشّعور الذي سرى بداخلي حين وقفتُ على الحافّة مطلًّا على الماء. لذلك، أخذتُ أبحث عنه كلّ يومٍ دون أن تنتبه أمّي، حتّى وجدتُه في النّهاية في مجلّدٍ كبيرٍ في مكتبتها.

اخترتُ الوقت المناسب للقفز، وقت راحة أمّي واستلقائها على الكنبة وهي تقرأ، حيث تسهو عيناها معظم الأحيان. فتحتُ باب الشّرفة بهدوءٍ. أوصدتُه ورائي كي أقفز والمفتاح بيدي، ثمّ وقفتُ على الحافّة. كان كلّ شيءٍ حولي يتموّج في ضوء قنديلنا المزخرف، الذي اتّسع حتّى غدا شمساً تصنع ألواناً جديدةً، فنظرتُ إلى الغيوم ذات الأشكال المتغيّرة كأنّها «ملتينة» الهواء، وقمّة الجبل حيث ترعى خرافٌ ذهبيّةٌ الزّمرّد، وحقل الأزهار التي ترتدي أحذية رقصٍ مزركشةً ذات كعوب، والحشرات الطّائرة في فقاعةٍ نفخها طفلٌ مثلي يسكن الفضاء.

مزجتُ ألوان المشهد في عينيّ بالأزرق الذي يتنفّس في مرآته السّائلة في الأسفل. أحنيتُ قامتي ملامساً أصابع قدميّ، متقمّصاً قوساً يشدّ وترَه إحساسه الجديد بوجوده، وفاتحاً مساماتي لحرارةٍ تصعد من الأرض وتتكدّس داخلي. أطلقتُ جسدي مادّاً ذراعيّ إلى الأمام، فارتفعتُ إلى أعلى قليلاً، ثمّ تلقّفتْني الجاذبيّة الهائلة تحتي.

كانت البِركة تكبر كلّما اقتربتْ شوقاً للقائي، بينما يتذوّق جلدي طبقات الهواء العديدة، وتعبر العصافير السّوداء العطشى الحيّز بين ذراعيّ. وصلتُ بعد قطراتٍ في ساعة الماء السّطح المرتعش، فتحتُه بالمفتاح في يدي، فأشبهتُ شخصاً يدرك في لحظةٍ خاطفةٍ أنّه معلّقٌ في العتبة. تبع نصفي الذي يحتوي ساقيّ، في لمح البصر، نصفي الآخَر في البلل.

قضيتُ بعض الوقت في الهواء المائيّ بين السّطح والقاع، ثمّ لامستُ بأنامل يدٍ واحدةٍ الحيوانين النّائمَين في لوحتهما النّابضة،

فأفلتُّ المفتاح لألمسها بكلّ أصابعي... فاستيقظا كي يرافقا جسدي في الصّعود نحو السّطح، حيث يرتشف لسان الشّمس الماء.

ما إن يسرح المرء قليلاً، حتّى تحدث أشياء عجيبةٌ في هذا البيت، فها هي السّاحة مكتظّةٌ بأناسٍ ليسوا من عائلتنا، إذ بدأتْ حفلة التّرحيب التي سمعتُهم بالأمس يتحدّثون عنها، والتي أزالوا لأجلها -كما لاحظتُ الآن- القنديلين التّوأمين أمام الباب. هناك أطفالٌ ينزلون إلى البِركة، كيف يستطيعون السّباحة في ماءٍ عكرٍ لا يزال أخضر، حتّى بعد أن أزالوا قطع الطّحالب الشّبيهة بجزرٍ متوهّجةٍ على سطحه؟

الأكبر سنّاً بينهم يرتدي نظّارة غوصٍ وينزل رأسيّاً في الماء العميق. الأطفال الآخَرون يقفزون من جوانب البِركة في الماء الضّحل واقفين على أقدامهم. ألمح الغوّاص يحمل شيئاً بيده ملوّحاً به أمام الكبار الجالسين على كراسي القشّ.

أستطيع تمييزه بعد أن خفّتْ حركتها، إنّه يحمل مفتاح شرفة أمّي. أحدهم يصرخ موجّهاً نظر الجميع نحوه، إنّه طفلٌ صغيرٌ يسحبونه من الماء، تنزف قدمه دماً غزيراً لا يتوقّف، لكنّ رأسي يؤلمني بشدّةٍ دون أن أعرف لماذا، تتدفّق الآن أشياء لا أستطيع كبحها:

- طعم موادٍ كيميائيّةٍ ماءٌ بلونٍ آخَر صراخٌ دموعٌ أضواءٌ حمراء اهتزاز قنديل المرآة بفعل ريحٍ تهبّ على الزّخارف... .

ثمّ بعد ذلك لا يتركون مصباحاً واحداً مضاءً للخارج.

منزل نهاية الأسبوع

لم نصدّق –حين رأينا المنزل الفاخر ذا الطّابقين والقرميد الكحليّ– أنّه كان أرضاً خربةً قبل فترةٍ قصيرةٍ. ومن سطح عمارتنا، كنّا قادرين على مشاهدة حديقته ذات الأشجار المتفرّعة والبساط العشبيّ، لكنّ الشّيء الذي أثار اهتمامنا أكثر من غيره كان بِركة السّباحة ذات الإطار المرصّع، التي فتحتْ في الخرسانة المسلّحة نافذةً عملاقةً تطلّ على الغيم.

فيما مضى، كانت أرضه ملعب كلّ أطفال الحيّ. كنّا، في الفصول الجافّة، نلعب الكرة على ترابها المختلط بالحجارة، متّخذين من الصّخور البارزة قوائم تحدّد المرميَين. وحين تغرق الأرض بأمطارٍ تطمس معالم الملعب، فإنّ رحلاتنا الأمازونيّة لم تكن تكتمل سوى بالسّباحة في الطّين، وبصراخ أمّهاتنا الذي يضفي على المغامرة لذّة الخطر.

كان جيراننا الجدد عائلةً تتكوّن من زوجين وطفلين وكلبٍ أسود كبيرٍ. لم يكونوا يبيتون في منزلهم سوى في نهاية الأسبوع، فلم يكن مكان إقامتهم الدّائم. وفي اللّيل، كان من عادتهم السّباحة بكامل عدّتهم من قبّعاتٍ ونظّاراتٍ وأدوات تنفّسٍ، بعد أن يطفئوا

كلّ الأضواء ويضيئوا الكشّافات الدّاخليّة لبركتهم، فيبدو المسبح الشّفّاف شبيهاً بسربٍ من حيوانات قنديل البحر، يتموّج مع حركات أجسادهم -التي لا تتوقّف- في الماء.

كنّا نشاهدهم محتمين بظلام سطحنا. نتبارى فيما بيننا في التّعليق على مهاراتهم في السّباحة واختيار الأفضل. كان أحد الأطفال يشبه في طريقة سباحته الدّلفين، وكان أخوه يتحرّك مثل الضّفدع، وتميّز الأب بسباحةٍ طويلة النّفس تحت الماء، بينما كانت الأمّ تفضّل السّباحة الهادئة على ظهرها محدّقةً في النّجوم.

كنّا نراقبهم كأنّنا نشاهد فيلماً أو مسرحيّةً، برهبةٍ غامضةٍ رغم احتمائنا باللّيل، لكنّ الحاجز سرعان ما كان يضعف مع الوقت، بتأثير السّلام المتبادل، والسّؤال عن أسماء الأطفال وأعمارهم، والحديث عن الطّقس، ما جعل أطفال حيّنا يتجرّؤون على سؤال مالك المنزل أسئلةً تتعلّق بالسّباحة، مثل كيفيّة تعلّمها، والاختلاف بين البرك والبحر... .

لتقودهم كلّ تلك الأسئلة إلى السّؤال الأهمّ: «متى ستسمح لنا بالسّباحة عندكم؟».

السّؤال الذي كان الرّفض الجواب الدّائم عنه، بحججٍ لبقةٍ تتعلّق بوجود نساءٍ في المنزل، أو عزومةٍ عائليّةٍ، أو عطلٍ كبيرٍ في أجهزة المسبح التي تنقّي المياه.

بعدها، أحضر الجار كرتَي قدمٍ هديّةً للأولاد. لا شك أنّه خشي من تطوّر الرّغبة الملحّة إلى اعتداءٍ على المنزل المتروك معظم أيّام الأسبوع، أو إلى لامبالاةٍ كاملةٍ بالمكان تغلق عين الجار عن منزل جاره.

وحين لم يعد غيري يتلصّص من السّطح على العائلة السّعيدة في بِركتها، علمتُ أنّ الرّشوة نجحتْ في تسكين جرأتهم، فكان عليّ التّدخّل، فاستيقظتُ قبل الجميع كي لا يراني أحدٌ، لأطعن بسكّين والدي -التي سرقتُها- الكرتين اللّتين تقاسمهما الجميع، المخبّأتين في مكانٍ مشتركٍ في مدخل عمارتنا، فعادوا جميعاً إلى رغبتهم الأُولى في ظلام سطحنا المشرف على الباحة المضيئة.

ثمّ جاء دور الخطوة الثّانية. وضعتُ سطل القمامة بالمقلوب فوق حوضٍ خارجيٍّ ملاصقٍ للسّور. صعدتُ على السّطل، وبدأتُ بالتّسلّق الذي لم يكن صعباً، لأنّ الحجارة كانت بارزةً بشكلٍ يتيح لليدين الإمساك الصّلب وهما ترفعان الجسد إلى أعلى، ويتيح للقدمين الوقوف الثّابت تهيئةً لحمل الجسد مجدّداً. وحين وصلتُ حافّة السّور، أجّلتُ النّظر أمامي كي أتواصل مع دهشة الأولاد تحتي، مشجّعاً إيّاهم على اللّحاق بي، ومحاولاً إقناعهم بأن لا كاميرات سِرّيّةً في المكان.

نظرتُ أمامي، فكانت الباحة تبدو أكثر جمالاً مقارنةً بصورتها من سطح العمارة. قفزتُ بسرعةٍ على حوض النّباتات، غير شاعرٍ بالألم حين هبطتُ على رجليّ ويديّ. تجوّلتُ بالحديقة التي أخذتْ تكبر أكثر فأكثر. لمستُ الأزهار الشّبيهة بأفواه الأسماك، مخيفاً عصفوراً بحجم إصبعي. ساعدتُ ثمار الحمضيّات المشدودة من الجهتين على التّحرّر من الشّجرة. تمدّدتُ على كرسيّين من الخيزران، جذبتُ خرطوم النّارجيلة نحوي، وضعتُ المبسم في فمي، وسحبتُ دخاناً لامرئيّاً متخيّلاً دوائر في الهواء. وقفتُ على الطّاولة حيث يتناولون طعامهم، ونظرتُ أخيراً إلى البركة، فكانت ترتعش في النّسيم لهب

شمعةٍ يحملها تلهّفي، فشعرتُ أنّ هذا المنزل لي، أنّي سأمتلكه من الآن فصاعداً أكثر من أصحابه الذين لا يمتلكونه سوى يومين في الأسبوع. خلعتُ ثيابي وأنا على الطّاولة، وبقيتُ بسروالي الدّاخلي. كنتُ أستطيع التّبوّل عارياً إذا شئتُ في المسبح، لكنّي لم أرغب بترك أثرٍ ورائي.

قفزتُ في البِركة من الطّاولة بمهارةٍ اكتسبتها من ساعات التّلصّص الطّويل، فخلعتُ عنّي معطفاً ألبستني إيّاه شموس الظّهيرة، كأنّي أتخلّص من أحمالي في طقس التّعميد. أخذتُ أقلّد حركات العائلة، مجذّفاً على ظهري وعلى بطني، كأنّني قاربٌ يقوده متسابقٌ أولمبيٌّ، متقمّصاً بعد ذلك الضّفدع والدّلفين. أيقنتُ أنّي أمهر من الولدين، وأنّ مهارتي تقترب من مهارة الوالد، إذ كنتُ أمارس السّباحة في سريري كلّ ليلةٍ، وأتخيّله -في العتبة بين النّوم واليقظة- قاع بحرٍ ينبغي لي ملامسته بالأنامل.

كنتُ أسبح على ظهري عندما شاهدتُ بالمقلوب أحد الأطفال على حافّة السّور ينظر بتردّدٍ نحوي، فأخذتُ أقوم بحركاتٍ استعراضيّةٍ وأُصدر أصواتاً تدلّ على الانتعاش، فشجّعه ذلك على القفز على الحوض، والنّزول إلى البِركة معي.

ولم يكد صديقي يكمل قطع البِركة، حتّى امتلأتْ بكلّ أولاد حيّنا، فصرنا نرشّ أجسادنا العارية بالماء، ونقفز معاً من الحافّة، ونتبارى بمسابقاتٍ كنتُ الأوّل فيها، كسباقات السّباحة المختلفة، وحبس النّفَس، والعثور على قطعةٍ معدنيّةٍ غارقةٍ.

وبعد انتهائنا من اللّعب، رتّبنا المكان جيّداً، وتأكّدنا من عدم ترك أيّ قطعة ثيابٍ تدلّ علينا، ثمّ أقسمنا -كما كنّا نفعل في أرضنا

الأمازونيّة- ألّا نفشي السّرّ، بعد أن أخبرتُهم أنّنا لسنا لصوصاً، وبأنّ ما سنكرّره في الأيّام القادمة هو الأجر العادل لحراستنا.

وهكذا تقاسمنا المنزل مع أصحابه، لهم نهاية الأسبوع، ولنا ما تبقّى من أيّامٍ يعادل عددنا.

لكنّي أحياناً كنتُ أرغب في قضاء بعض الوقت في البيت وحدي، كي أستعيد ذلك الشّعور الأوّل بالحرّيّة، وامتلاك المكان. تسلّلتُ إلى المنزل قبل موعدنا المعتاد، مقلّداً أفعالي في المرّة الأُولى. أردتُ أن أتدرّب على كتم نفسي والسّباحة قرب القاع دون أن ألامسه بجسدي. وحين هممتُ بالنّزول، شاهدتُ أحد الأولاد وهو يتسلّق السّور، تبادلنا بضع كلماتٍ، وغطستُ مستعجلاً كي أحظى بالعمق الأزرق وحدي قبل أن يشاركني إيّاه. قضيتُ بعض الوقت في سريري المائيّ، مفلتاً الحبال التي تشدّ جسدي إلى أعلى. لم أشعر بصديقي حولي، فتحتُ عينيّ فلم أجده، فصعدتُ نحو السّطح كي أتفقّد الأمر وأملأ رئتيّ بالهواء.

كان محيط البِركة خالياً. شدّ انتباهي ضجيجٌ قادمٌ من جهة السّور، فشاهدتُ الأولاد عليه يصرخون، دون أن أفهم في البداية معنى أصواتهم التي لم تصلني تحت الماء، والتي أصبحتْ بعد ثوانٍ قليلةٍ إنذاراً بالعودة المفاجئة لصاحب المنزل. خرجتُ من المسبح بسروالي الدّاخليّ فقط. بحثتُ عن ملابسي التي لم أتذكّر أين خلعتُها. أضعتُ كثيراً من الوقت حتّى وجدتُها، فحلمتُها ملتصقةً بجلدي الرّطب، ومشيتُ بحدسي نحو السّور، إذ انشغل بصري بمراقبتها كي لا تقع. انتبهتُ أنّي لم أعد أسمع صراخهم، فأدركتُ

أنّهم اختبأوا. وحين رفعتُ نظري بعد أن اكتمل الموقف لديّ، شاهدتُ الرّجل وكلبه يسدّان عليّ الطّريق نحو السّور.

كان الكلب يبتعد مسافةً قصيرةً عنيّ، فعدتُ إلى الوراء شاعراً بحرقةٍ شديدةٍ في جسدي. كنتُ محاصراً بالنّباح وباحتراق عينيّ الذي يرافقه ماءٌ غزيرٌ، ففركتُهما بسرعةٍ بعد أن شعرتُ بثيابي تضرب قدميّ، وحين فتحتُهما كنتُ محاطاً بالعديد من الكلاب التي لم تبقِ لي منفذاً للهرب. تجمّدتُ في مكاني تصطدم بي صرخاتٌ ترتدّ قبل أن ألتقطها، محدّقاً في النّظرات الحمراء لأحد الكلاب، الذي انقضّ عليّ وقدمي على الحافّة، مسقطاً إيّاي في المسبح، فأدركتُ -وأنا أغرق مبتلعاً الماء غريب الطّعم- أنّي وقعتُ في كمين المالك، وبأنّه انتقم منّي بالمواد الكيميائيّة بعدما اقتحمنا مكانه.

استيقظتُ في المستشفى شاعراً أنّي كنتُ نائماً أيّاماً عديدةً. فتحتُ عينيّ بصعوبةٍ بالغةٍ، فرأيتُ أبي وأمّي يجلسان قرب الجار، الذي مدّ نحوي نظّارة سباحةٍ فاخرةً وأنبوب تنفّسٍ للغطس. أشحتُ بنظري عنه، غير قادرٍ على التّكلّم، شاعراً بالإرهاق رغم النّوم الطّويل. وحين لم أعد قادراً على تحمّل الصّوت خلفي، أطبقتُ عينيّ بقوّةٍ كأنّي أُغلق الباب عليّ، فشاهدتُ كلابه السّوداء تحاصرني على الحافّة.

ركضٌ حول بيت الجدّة

وصلتُ بيت الجدّة المهجور عصراً. اختارني أبي وأعمامي كي أهيّئه لزيارتها، فقد اضطرّها المرض إلى تركه بسبب حجمه الكبير. اختاروني أنا دون غيري، فالكاتب في نظرهم عاطلٌ عن العمل.

والحقيقة أنّني رغم ذلك كنتُ متشوّقاً لزيارة البيت الذي تركتُ فيه الكثير.

فتحتُ البوّابة الثّقيلة بسبب قلّة الاستخدام ودخلتُ. أصبحتُ في زمنين في الوقت ذاته، زمنٍ قديمٍ كان البيت يعجّ فيه بكلّ أطفال العائلة، وزمنٍ حاضرٍ مغمورٍ بالتّراب والأوراق البلاستيكيّة والأحواض المهملة، لا أكفّ عن مقارنته بآخَره.

قرّرتُ أن أقوم بجولةٍ حول البيت قبل تفقّده من الدّاخل.

مشيتُ قرب السّور الذي يفصلنا عن بيت جارة جدّتي التي كانت تسكن وحدها، والتي امتلكتْ ديكاً نُسجَت عنه الأساطير، تتحدّث معه وتطعمه اللّحم، يتشاجران عندما يأكل حصّتها، ويقوم بالحراسة قالعاً عين الأولاد الذين يدخلون باحتها وراء كراتهم الطّائرة.

نظرتُ إلى النّافذة المغلقة، التي كنّا نتسلّق حجارة الجدار تحتها كي نسترق السّمع إلى أحاديث الكبار.

وقفتُ أتحسّس التّينة المكسورة، التي يبدو أنّ أحداً استسهل كسر أغصانها للحصول على الثّمار، بدل تسلّقها.

مشيتُ ببطءٍ قرب الأرض المليئة بالأشجار في الخلف، حيث كنتُ أُسرع في صغري، خائفاً من الظّلال الشّبحيّة التي يتركها المساء عندما يهزّ الأوراق.

تأمّلتُ القفص الكبير، الذي كان جدّي يضع فيه أضحيات العيد، وتذكّرتُ ذلك الخروف ذا القرنين الذي طاردني، فأخذتُ أصرخ باسم جدّتي وأنا أركض، ثمّ وصلتُ باب البيت الذي كان مفتوحاً، فأغلقتُه بقوّةٍ، ولهثتُ شاعراً بالنّشوة في عروقي.

حاولتُ أن أشتمّ رائحة الخبز في الشّرفة التي كانت تخبز فيها جدّتي، تاركةً الباب الذي يفصلها عن المطبخ مفتوحاً، فتدخل الرّائحة البيت.

وفي النّهاية عدتُ إلى النّقطة التي بدأتُ منها، بعدما مررتُ بسربٍ من الأشجار يضغط أغصانَها غياب الثّمار، متوقّفاً قليلاً أمام شجرة الجوز الكبيرة، التي كانت تطير بنا بشمسيّاتنا المفتوحة، وسط دهشة أطفال الجيران الذين ينظرون من النّوافذ.

وعندما فتحتُ الباب الذي غُيّر قفله حديثاً، شعرتُ أنّي أدخلتُ الحاضر إلى البيت، أنّه كان يحتفظ بماضيه، ووُلد من جديدٍ بغبار الحاضر. وكما حدث في الخارج، انقسمتُ بين اثنين، أناي الماضيّة التي جاءت لتلعب، والحاضرة التي تقارن بين الزّمنين.

ألقيتُ نظرةً -دون أن أدخل- على صالون جدّتي المحبّب الذي بهت لون أثاثه.

مسحتُ بكفّي طاولة غرفة الجلوس، التي كنّا نتناول عليها طعامنا، فانتبهتُ -وأنا أنظر إلى الغبار- إلى منديلٍ ملتفٍّ حول مزهريّةٍ في «البوفيه» الكبير. أدركتُ -إذ اقتربتُ أكثر- أنّه منديل بنت عمّي نارة، التي أحببتُها وأحبّتني دون أن ننتبه إلى الأمر، إلّا عندما بدأ الجميع يتحدّثون عنه. أوقفتُ سيل الصّور في ذاكرتي، مؤجّلاً إيّاها إلى ما بعد، وحملتُ المنديل معي.

دخلتُ إلى المطبخ، فتوهّجتْ جدّتي لحظةً على كرسيّها، قبل أن تتلاشى صورتها في الغبار.

تفقّدتُ غرفة نومها التي تشبه قاعدة سريرها أسلاكاً شائكةً في أحد أعمال منى حاطوم. ونظرتْ إليّ عنكبوتٌ على الجدار باستغرابٍ، فجعلتْني أُبصر البيت امتداداً لخيوطها.

عدتُ بعدها إلى الخلف، متجاهلاً غرفة عمّي، إلى الغرفة الأهمّ في البيت، غرفة ابنَي عمّي يزن ويامن، اللّذين عاشا هنا بعد وفاة أمّهما بسبب سفر والدهما معظم الوقت.

وضعتُ المنديل على السّرير الثّالث في المنتصف، الذي كنتُ أنام عليه في العطل الصّيفيّة. فتّشتُ في الخزانات مستحضراً قصّة كلّ قطعةٍ أجدها، سوى قصص بعض القطع التي وضعتُها قرب المنديل. وبعد أن انتهيتُ، جلستُ على السّرير بجانب الدّفتر المفتوح، وقلم الرّصاص، وساعتي الواقفة، وقبّعة يامن، وانتبهتُ إلى حذاء يزن الرّياضيّ تحت سريره، الذي كنّا نطلق عليه اسم الحذاء

السّريع. عندها فقط، سمحتُ للأشياء بالحديث، مدركاً أنّي كبتُّ زمناً ثالثاً غير الزّمنين اللّذين قابلتُهما حتّى الآن.

في الصّيف الذي أصبحنا فيه فجأةً مراهقين (باستثناء يامن الأصغر منّا بعامين)، اخترعنا لعبة سباقٍ يركض فيها كلّ واحدٍ منّا حول البيت، فنسجّل الوقت المستغرق إلى جانب اسمه في الدّفتر. كان الرّكض طريقتنا في التّعبير عن ثبات نفسٍ تتغيّر بسرعةٍ، وطريقتنا أيضاً في الهروب من غرابة أجسادنا، ومن النّظر إلى المرآة ورؤية الآخَرين.

لكن، وبعد أن انتبهنا أنا ونارة إلى حبّنا، أصبح الرّكض وسيلةً للتّنافس بيني وبين يزن، الذي كنتُ قادراً على استشعار غيرته وإعجابه بها. كنتُ وقتها أركض حول البيت متشوّقاً إلى رؤيتها فور وصولي نقطة النّهاية، متخيّلاً مطاردة الظّلال والخروف لي كي أزداد سرعةً تجعلني أهزمه.

وذات مرّةٍ، وبعد أن حقّقتُ عدّة انتصاراتٍ متتاليةٍ، اغتنمتْ نارة لحظةً -كنّا فيها وحدنا في الخارج- كي تعطيني هديّةً ملفوفةً. حدّقت في وجهها الجميل الخالي من التّعبير، ضاغطاً على هديّتها في يدي كأنّي أمنعها من الهروب. وبعد فترةٍ من الصّمت قالت لي «افتحها»، فكانت ميداليةً على شكل عدّاءٍ يركض. نظرتُ إليها في كفّي لحظاتٍ تبدو لي الآن طويلةً جدّاً، ثمّ عدت إلى وجه نارة مجدّداً، الذي حافظ على حياده الدّائم، ولا أدري كم من الوقت بقينا نتبادل التّحديق صامتَين، لكنّي أتذكّر أنّي رغبتُ في أن أحمل نارة الأطول قامةً منّي، وأركض بسرعةٍ هائلةٍ تجعلنا نفلت من الجاذبيّة.

في سريري بين يامن ويزن، أخبرتُهما قصّة الميدالية وأنا أرميها في الهواء، ممسكاً إيّاها بكلتا يديّ بعد سقوطها. نادتني جدّتي فتركتُها تحت الوسادة، ولمّا عدتُ لم تكن في مكانها. بحثتُ في كلّ مكانٍ فلم أجدها. سألتُ يامن عنها، فردّ عليّ موجّهاً حديثه إلى أخيه:

– ماذا ستقول نارة حين تعلم أنّه أضاع هديّتها؟

هجمتُ عندها على يامن الذي كان يفوقني قوّةً رغم صغر سنّه صارخاً فيه:

– أعدها أيّها اللّصّ.

كان يامن يمسك بيديّ وهو يضحك. عبَر البابَ المغلق صوت جدّتي التي أخذتْ تنهرنا ظانّةً أنّنا نلهو كعادتنا، فأبعدني عنه. وقفتُ في المنتصف بين سريرينا، فسمعتُ صوت يزن –الذي ظلّ طوال الوقت صامتاً– يقول:

– إيّاكَ أن تلمس أخي مجدّداً وإلّا تدخّلتُ. أنت أضعتَها، فلا تتّهمنا بأنّنا سرقناها. وإذا أردتَ أخبر جدّتي بالأمر.

نمتُ في تلك اللّيلة بينهما، شاعراً بمسافةٍ هائلةٍ تتنفّس بين الأسرّة.

في اليوم التّالي جاءت نارة مع والدتها. أخبرتُها أنّهما سرقا منّي ميداليتها، فبقيتْ صامتةً كعادتها. جلستُ وحدي على شجرة الجوز، ثمّ جاءت تسألني إن كنتُ أرغب في الرّكض معهم، فأجبتُها بالنّفي دون أن أنظر. شاهدتُهم بعد ذلك يركضون معاً، غير آبهين بشمس الصّيف فوقهم.

في المساء جاء والدي، فأخبرتُه برغبتي في المغادرة، معلّلاً طلبي الغريب هذا بأنّ المدرسة على الأبواب، وأريد التّحضير للسّنة الدّراسيّة القادمة، التي ستكون صعبةً كما سمعتُ، وبأنّي أيضاً اشتقتُ للبيت ولأصدقائي في حيّنا.

بعد ذلك أصبحتُ أتحاشى بيت جدّتي قدر المستطاع، وكنتُ عندما أزورها أظلّ جالساً مع الكبار، محاولاً الإيحاء بأنّي غدوتُ ناضجاً. كنتُ أتحاشى النّظر إلى ثلاثتهم عندما يجلسون معنا، وأبقي مسافةً بيننا في الحديث. ورغم ذلك، كنتُ في المنام أشاهد نفسي تركض حول البيت معهم، وتطير حاملةً نارة بمنديلها حول عنقها. لكن، ربّما كانت لذّة شعوري بالاختلاف، وبالوحدة، وبكوني ضحيّتهم، أهمّ -في سنّي تلك- من قضاء الوقت معهم.

أحداثٌ كثيرةٌ وقعتْ بعد ذلك. أصيب يامن بمرضٍ عضالٍ جعل جسده القويّ هزيلاً. لم أزره سوى مرّةٍ واحدةٍ في المستشفى. ومات بعد سنةٍ من مرضه. وفي يوم العزاء الأوّل، دخلتُ لإحضار القهوة من باب شرفة المطبخ، فوجدتُ نارة هناك. تبادلنا التّحديق بصمتٍ. كان وجهي محايداً، وكان وجهها يعجّ بالحزن، وبصراخٍ موجّهٍ نحوي يطلب منّي الرّجوع، لكنّه وقتها كان يعني النّدم، والاعتراف بالسّذاجة، وبأنّي أضعتُ سنواتٍ عديدةً بعيداً عنهم.

قضيتُ أيّام العزاء ملهياً نفسي بخدمة المعزّين. ولم أتبادل النّظر أو الحديث مع يزن.

بعد ذلك بسنواتٍ قليلةٍ، تزوّجتْ نارة. لم يصدّق أحدٌ في العائلة أنّها وافقتْ على الزّواج في سنّها الصّغيرة تلك. تزوّجتْ

وسافرتْ مع زوجها. سافر يزن أيضاً ليعمل مع والده. وتركتْ جدّتي بيتها إلى شقّةٍ ضيّقةٍ في إحدى العمارات.

لذلك، بعدما انتهت فترة مراهقتي، وأصبحتُ أرى الأمور بطريقةٍ أخرى، وبعدما تأثّرتُ بحال البيت، فلم أعد قادراً على الكبت أكثر، أردتُ الاعتذار إليهم، وأن أعيد أشباحهم القديمة إلى الحياة مرّةً أخرى.

أخذتُ الأشياء إلى الخارج كي نتسابق من جديدٍ مستخدماً ساعة هاتفي. أردتُ أن أتقمّصهم، أن أرتدي أشياءهم كأقنعةٍ طوطميّةٍ. بدأتُ بقبّعة يامن وركضت حول البيت، سجّلتُ الوقت المستغرق، وفعلتُ الشّيء ذاته مرتدياً شال نارة، ثمّ حذاء يزن.

كنتُ أركض وأنا أدوس أوراق الأشجار والأكياس البلاستيكيّة، مشاهداً صوراً عن الشّخص الذي أضع القناع الذي ينتمي إليه.

وفي النّهاية جاء دوري، فتقمّصتُ أناي القديمة مرتدياً ساعة اليد الواقفة. كان عليّ أن أتفوّق على نتيجة يزن، التي كانت أعلى من كلّ أرقامه السّابقة.

ركضتُ بسرعةٍ كبيرةٍ هارباً من ديك الجارة الذي يقلع العيون، من أصوات الكبار الآتية من النّافذة وهي تتحدّث عنّي وعن نارة، من أشخاصٍ يكسرون أغصان شجرة التّين ويسألونني «ما الذي تفعله هنا؟». رأيتُني أركض نحو قلب نارة الذي سيغلق عليّ وحدي كمصيدةٍ عند الوصول، قلبها السّعيد بتنافسنا المحموم عليها. وصلتُ الطّريق قرب الأرض المليئة بالظّلال، فهربتُ من

شبحٍ كاد يمسك قميصي من الخلف. وأمام القفص، أفلت الخروف من حباله مطارداً إيّاي وهو يصوّب قرنيه نحوي. ركضتُ هارباً منه بكلّ ما تبقّى لي من طاقةٍ. كنتُ أبتعد خطوةً وكان يقترب خطوتين. نظرتُ ورائي فرأيتُه على بعد خطوةٍ واحدةٍ منّي، فقفز فوقها ونطحني بقوّة الغابة القديمة في قرنيه، فطرتُ في الهواء وسقطتُ في الممرّ المحاذي لشجرة الجوز.

نظرتُ أمامي ملتصقاً بالأرض، فشاهدتُهم أمام البيت، يرتدي كلّ واحدٍ منهم قطعته المميّزة، نارة تحمل الدّفتر مغلقاً في يدها، ويزن يرمي ميدالية العدّاء في الهواء مثيراً ضحكات يامن.

انتبهوا إليّ، فدخلوا البيت وأغلقوا الباب وراءهم، فشعرتُ بالثّواني تركض في ساعة يدي.

كلّما عبرتُ حاجزاً

يدٌ تحاول أن تصير مفتاحاً

أنا عبدٌ للنّوستالجيا، سليل كائناتٍ لا تقيم سوى في ذاكرتها. ألف ضحكةٍ في حاضري لا تعادل دمعةً في ماضيّ. عبثاً تزوّجتُ وخالفتُ كلّ مبادئي، لأنجب أطفالاً أستعيد الطّفل الذي كنتُ في لعبهم، عبثاً أبحث بين ذراعَي زوجتي عن بئر طفولتي.

لا أحتفظ من طفولتي سوى بخزانة لعبي الحمراء، خبّأتُها في غرفتي المغلقة، حيث أتظاهر بالعمل طويلاً على مكتبٍ متشّقق. أُوصل زوجتي وأطفالي كلّ صباحٍ إلى مدرستهم، إذ تعمل زوجتي معلّمة أطفالٍ في المرحلة التّمهيديّة، وأعود إلى خزانتي لأكون وحدي، فأنا أعمل في مكتبةٍ قرب المنزل، مكتبتي الصّغيرة التي تشبه خزانتي، ولا ضرر في التّأخّر في فتحها قليلاً، فلم يعد أحدٌ يبحث عن كتاب.

أبعدتُ الخزانة عن أيدي أطفالي، ربّما لأنّي أخاف أن أوذي أحدهم إذا كسر دميةً، فأنا أومن بأرواح الدّمى، وبدمٍ لامرئيٍّ يجري في داخلها. ومن النّقطة الأخيرة سأبدأ حكايتي:

اليوم وأنا أحاكي نفسي قبل أعوامٍ طويلةٍ كما أفعل عادةً، شاهدتُ مسدّساً حديديّاً منزوياً تحت الألعاب. لم أره في خزانتي من

قبل، فقد فقدتُه حين كنتُ صغيراً، في اليوم ذاته الذي حصلتُ فيه عليه. كنتُ في الصّفّ التّمهيديّ، ذلك الصّفّ الغريب الذي يسبق الصّفّ الأوّل، وكان المسدّس لصديقي الذي يشاركني المقعد، اشتراه له والده من الخارج. شعرتُ أنّ المسدّس يناديني ويقول لي «أنا لك»، إذ تذكّرتُ -لحظة رأيتُه- حادثةً وقعتْ لي قبل أسابيع قليلةٍ، حين كنتُ مع أبي، وحين لم يكد الإمام يسلّم عن يمينه وعن يساره، حتّى غسل الهواءَ أزيز الرّصاص ورائحة الغاز. لم أفهم الأمر جيّداً، حملني أبي في ظهيرة يوم جمعةٍ حارٍّ وركض بي. على كتفيّ جلس رجلٌ عجوزٌ برداءٍ أسود، شاهدتُه خلف الزّجاج في بيتنا ذات مساءٍ، حين أجبرني والديّ على النّوم وحيداً في سريري. كان يحمل كيساً كبيراً، ويجمع المشاهد التي أراها بسرعةٍ، وهي تتقافز أمامي كما في حلمٍ:

الحجارة المتكسّرة على الأرض والصّرخات: «حرام تكسير حجارة الأقصى»، الخوذة العسكريّة، الرّأس المفتوح على التّراب وما خرج منه، القميص الأحمر وهو يدقّ بقوّةٍ على بابٍ، كأنّ يده تحاول أن تصير مفتاحاً، شرفة بيتنا وصراخ سيّارات الإسعاف الذي يشبه أبي وهو جالسٌ أمام الهاتف الأخرس.

لا أتذكّر كيف حصلتُ على المسدّس، هل كنتُ أحمل نقوداً؟ هل بادلته بلعبةٍ ما؟ أم ربّما سرقته؟

أتذكّر أنّي -عندما أمسكته بيدي- شعرتُ أنّه هو الآخَر يسمك بها، كأنّه امتدادٌ لها، حتّى أنّ يدي حكّتني حين حطّت ذبابةٌ على معدنه الدّافئ.

غادرنا المدرسة في الباص المدرسيّ الصّغير. كانوا يكدّسوننا فوق بعضنا كأكياس الأرز. ناضلتُ كي أجلس قرب النّافذة. وحين مررنا قرب الحاجز العسكريّ، ذلك الذي يفصل منزلنا عن المدرسة، تحدّث المسدّس معي:

حان الوقت.

مددتُ يدي من النّافذة، وجّهتُه نحو الحاجز العسكريّ، صوّبتُ جيّداً، ثمّ أطلقتُ.

في اليوم التّالي، جعلتْني المديرة أعتذر لكلّ صفوف المدرسة. كنتُ طفلاً خجولاً، بيْد أنّني لم أشعر بأيّ خجلٍ. اعتذرتُ بوقاحةٍ مفرطةٍ إذ تلوتُ الاعتذار كاسمي، وكمن يقرأ خبراً عن دولةٍ بعيدةٍ في جريدةٍ، دون أن يبدي أيّ تأثّرٍ.

فوقتها، ووقت وبّخني أبي حين علم بالقصّة، لم أكن أفكّر في شيءٍ. لم أكن خجلاً ولا خائفاً من مطاردة الجنود لباصنا المدرسيّ، أو من فتحهم بابه بقوّةٍ تخالف وصايا المعلّمة. كنتُ فقط أعيد المشهد في عينيّ مجدّداً:

خروج الرّصاصة من مسدّس الأطفال، وقتلها العجوز الأسود الذي حاول اعتراضها، ثمّ تضخّمها رويداً رويداً في الهواء، حتّى صارت تشبه قذيفةً هائلةً مزجتْ الانتظار الطّويل على الحاجز، بأشلاء وضحكات جنودٍ وبنادق أكبر من مسدّسي.

والآن، بينما أُمسك لعبتي التي غابت طويلاً عنّي، والتي عادت في هذا اليوم الغامض، أسمعها تهمس:

حان الوقت.

على حاجز قلنديا

ها قد بدأنا، وسواءٌ كانت سيّارتكَ الفارهة تسابق الرّيح، أو كانت سلحفاةً مسخها الله سيّارةً تسعل الدّخان، أو أنّكَ ممّن يفضّلون الهواء النّقيّ، فتقود قدميكَ في الطّريق المتفحّم والمغسول جيّداً بالمياه العادمة تبصقها سيّارة قمع الأطفال، فإنّكَ في كلّ الأحوال ستنتظر. ستنتظر طويلاً وسيقضم حاجز قلنديا عمركَ كما يقضم والد الطّفل الميّت أظافره وهو ينتظر خبر العملية، فالنّاس سواسيةٌ أمام «المعبر».

لقد استوردوا العديد من علماء التّنمية البشريّة، كي يستثمروا الوقت المهدور على الحاجز، وقد أثبتتْ دراسةٌ نرويجيّةٌ أنّ الإنسان يقضي خمس سنواتٍ من حياته في المرحاض مسهولاً بكبد سمك القد، أو بالسّلمون المدخّن بدخان المواجهات على الحاجز، وخمس عشرة سنةً على حاجز قلنديا، «الإنسان آه؟».

بالتّأكيد، فحتّى الدّول الإسكندنافيّة تكتظّ بالحواجز، وأكبر مثالٍ على ذلك ما رواه لي صديقي النّرويجيّ هولست عن حاجز أوسلو اللّعين. لقد حاولوا كثيراً أن يجعلوكَ تقرأ، أو تدرس، أو تستمع للموسيقى، أو تمارس اليوغا، وحتّى حاولوا فتح كافتيريا

عالواقف اسمها «حُبْ عالحاجز». لكن، من يستطيع القيام بأيّ فعلٍ إنسانيٍّ في هذا الحاجز الذي ينظّمه الحنّ والبنّ والسّنّ والخنّ؟

جيّدٌ أنّكَ لا تنسى التّنفّس!

ولكي نكون منصفين قليلاً، فللحاجز فوائد جمّةٌ غير المساواة بين المنتظرين عليه، منها أنّنا نجرّب في الانتظار مرور الزّمن في شكله الأنقى كما قال صمويل بيكيت. ولا أنقى من هيك، فبيكيت هذا كما يروي رونان مكدونالد في مقدّمة كامبريدج الفصل الثّالث صفحة 67 السّطر الثّاني، كتب مسرحيّته «في انتظار غودو» على حاجز قلنديا، بين أكتوبر 1948 ويناير 1949، حين كان يدرس الأدب العبثيّ في جامعة بيرزيت.

وأيضاً، فإنّكَ في الانتظار تسمع أصوات الطّائرات عندما تحطّ قربكَ في مطار القدس، حيث الرّحلات كلّ يوم إلى مدنٍ عربيّةٍ كبيروت مينا الحبايب، وعمّان الجمر والجاه. ولا بأس حين تنتظر طويلاً دوركَ، وحين تقدّم امرأةً من شبّاك اللّباقة أمامكَ فتعبر الحدود إلى الباصات، وحين تكون واقفاً مباشرةً أمام الباب، وقد أتمّ عابرو القارّات طقوس العبور تحت أنظاركَ، وفرحتكَ فرحتين:

فرحة المغترب إذ يقترب، وفرحة «الشّب الجنتل» لأنّكَ أعطيتَ الأنثى دورك. لا بأس إذا تمخّض الجبل، فولَد فأرةً تلد على الميكرفون «مسلك 3 مسكر، مسلك 2 مفتوح وفاضي»، لا بأس أبداً لأنّكَ لن تضطرّ إلى لعن شيءٍ، أو لعن شرف الفتاة التي تنعم حاليّاً بالحرّيّة، والتي تتنفّس هواءً كان على رئتيكَ أن تتنفّساه، لا بأس لأنّكَ ستستقلّ طائرة بيروت إلى غدائكَ!

لكن إيّاكم أن تظنّوا النّاس سواسيةً، لم يولد الجميع مثلي، هاكم قصّتي، قصّة البطل الذي هزم حواجز الاحتلال وكونتينرات المخابرات التي تكتظّ فيها، ولتكن قصّتي عبرةً لكلّ من يعتبر، ودرساً لكلّ حركات التّحرّر في العالم من الجزائر إلى كوبا.

ولدتْني أمّي على حاجز حوّارة. أهلها من نابلس وزارتهم في شهري التّاسع، أبي من القدس، حذّرها طويلاً من الخروج من البيت في هذا الشّهر الحرج. كان يكره أهلها كرهه للاحتلال وإجراءات «لمّ الشّمل»، فقد أخرجوه عن كلّ الأديان التي اعتنقها حتّى أعطوه أمّي، فسمعة أهل القدس في «الضّفّة» ليست كما يجب.

وحين علم أنّها تلد على الحاجز، جاءها بملابسه الداخليّة ركضاً (نعم لقد ركض من القدس إلى نابلس) فعزّز السّمعة. وكاد يرمي عليها يمين الطّلاق بعد الولادة لأنّها خالفتْ أوامره، لولا أنّي نطقتُ في المهد أولى كلماتي «محسوم»، فارتعب الجنود، واستبشر أبي خيراً، وسمّاني صلاح الدّين تيمّناً بصلاح الدّين الأيّوبيّ.

كانت مدرستي الابتدائيّة على يسار الجدار المستقبليّ في بلدة الرّام، كنتُ أعبر حاجز الضّاحية القديم، وكانت مدرستي الإعداديّة والثّانويّة على يمين الجدار الوليد، الذي كنتُ أشاهده وهو يبنى من نافذة صفّي، وكنتُ أعبر حاجز الضّاحية الجديد القديم الذي نقلوه أمتاراً إلى الأمام. وحين أنهيتُ «التّوجيهي» بأعلى العلامات، سجّلتُ في جامعة بيرزيت، رغم أنّي أستطيع التّسجيل في هارفارد، التي قبّلتْ حذائي حتّى أسجّل لديها ولم أقبل، فكيف يقبل صلاح الدّين الهجرة إلى بلاد الإفرنج؟

كنتُ أعبر الحاجز يوميّاً، حاجز قلنديا أقصد. وكما لا تعلمون، فإنّكم حين تعبرون يسجّل الجنديّ رقم «هويّتكم»، ولديهم في جهاز الحاسوب عدّادٌ، يسمّونه في لغات البرمجة المتغيّر «كاونتر» من نوع «انتجر». كنتُ كلّما عبرتُ يعدّ لي على أصابعه، وحين يصل العدّاد إلى رقمٍ معيّنٍ، فإنّ الجنديّ يرفع سماعة الهاتف، ويتلقّى التّعليمات العليا بإدخال الشّخص إلى الغرفة الحمراء.

الغرفة الحمراء هذه غرفةٌ ضيّقةٌ. في الحاجز القديم تجلسون ساعتين انتظاراً على كرسيٍّ، أمّا في الحاجز الجديد فتظلّون واقفين في غرفةٍ مظلمةٍ مع عنكبوتٍ سوداء على الجدار. تنتظرون ساعتين، ثمّ يقولون لكم مع السّلامة، لكنّ الحاسوب لا ينسى، جمل التّكنولوجيا اللّعين لا ينسى، وكلّ يومٍ حين تمرّون يدخلونكم الغرفة الحمراء، فتأملون أن يشفقوا عليكم ويعطوكم ورقة «مقابلة المخابرات»، وربّما صرختم فيهم عندما يطول انتظاركم: «بعرض أختكم خلّوني أقابل الكابتن بدّي أصير جاسوس!».

وأنا حين طلب منّي الجنديّ بأن أدخل الغرفة الحمراء، صرختُ وشتمتُ وشقّقتُ الزّجاج المضادّ للرّصاص بضرب يدي، «من أنتم حتّى تأمروني بالدّخول يا أحفاد القردة والخنازير؟». فاعتذر الجنديّ منّي، وأرسل كابتن المخابرات شخصيّاً ومخصيّاً من الخجل كي يقبّل يدي. كان يسمّي نفسه الكابتن أيمن، يجيد العربيّة أفضل منّي، ويعرف أخبار جامعتي أفضل من طلّابها. لا توحي ابتسامته بأنّه كابتن مخابرات، بل مندوب مبيعات.

أدخلني إلى مكتبه وهو يعتذر منّي طول الطّريق. ترجّاني أن أقبل إجراء مقابلةٍ شكليّةٍ معه، ندردش قليلاً كي لا يقطعوا رزقه،

فالحاسوب ابن الحرام لا ينسى، و«قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق، مش هيك بتقولوا بالعربي؟».

ولأنّ قلبي أبيض، قبلتُ ألّا أقطع رزقه، وأن أنتقم لكلّ أصدقائي وأبناء شعبي من «الشّاباك». قلتُ في نفسي سأجعل ضابط المخابرات فدائيّاً وأُرسله إلى غزّة.

– شو تشرب سيّد صلاح؟

– لا شيء، عجّل فلا وقت لديّ.

– بِصِرْشْ، إنتو العرب مشهورين بكرم الضّيافة، إزا جيت عبيتك ما بتشربني إشي؟

– بلى لا أضيّفك، فأنا لستُ عربيّاً، أنا من بلاد الكرد.

– خلص متل ما بدّك، لا تعصّب سيدي، احكيلي شوي عنّك لو سمحت.

– لن أخبرك عن ماضيّ، سأنبّئك بغدي وغدكم.

– يا ريت والله، احكيلي بعد إذنك.

– أنا الذي سيفتح القدس، ويعيد الشّمس إلى حيفا، أنا الذي سيهدّ هذا الحاجز على رؤوسكم وقبور آبائكم، وحدي من سيعيد اللّاجئين وحقّ تقرير المصير إلى العرب، أنا...

– بس إنتَ من كردستان شو بدّك بالعرب؟

– وأنتَ من روسيا، فماذا تريد من فلسطين؟

– أفحمتني الصّراحة. مرتاح بالجامعة؟

– جدّاً، كأنّي أجلس على أرجوحةٍ يحرّكها نسيم البحر.

– عندكم انتخابات في عشرين الشّهر، لمين رح تصوّت؟

– للجهاد الإسلاميّ!

– هههه شو دمك خفيف، بعرف إنّو الجهاد حرام الانتخابات عندهم، جد لمين؟

– لن أصوّت، فلا أحد يستحقّ صوتي غيري.

– طيّب... مكتوب عندي هون أبوك عندو سبع ولاد، كيف ملحّق عليكم؟

– هذا ما جناه أبي على نفسه وما جنيتُ على أحد، من قال له أن ينجب سبعة أولاد؟

– طب إنتَ ما بدّك مصروف، شويّة مصاري يعني شمّات هوا، بنات؟

– ويحك! أتَيْسٌ أنت؟ إنّي زير زمني، لا ترفضني امرأةٌ مهما كبر رأسها أو أشياؤها الأخرى.

– طب شويّة مصاري للمستقبل ما حدا بضمن إشي.

– سحقاً لك، أتريدني أن أُصبح عيناً تخدمكم؟ لا تحدّثني عمّا لا تعلم فأنا الغد.

– ليش فهمتني غلط سيّد صلاح، أنا قصدي بالحارة عندكم بس تحكيلي عن سعر البندورة والخيار، أنا كتير قلقان على المستهلك العربي، سمعت يا حرام مش ملحّق، وبدنا نحط حد للاستغلال.

– ذكّرتَني بذلك الكوريّ الجنوبيّ! فقط لا تتدخّلوا في شؤونه، وهو بألف خيرٍ من السّماء.

– شو بدّك حتّى تشتغل معنا؟

عندها تفجّر نهرٌ أسود تحت جلدي، وتدفّق دم الشّهداء في حنجرتي. وقفتُ أمامه ونشيد «فدائي» يصدح في كونتينرات الحاجز. قلتُ له: «أريد وطني، أريد وطني من النّهر إلى البحر».

كان عليكم أن تكونوا معي حتّى تبصروا دموعه. صار يشهق بالفصحى: «يا سيّدي ليس الأمر بيدي، والله لو كان الأمر بيدي لأعدتُ فلسطين إلى أهلها. أنا عبدٌ مأمورٌ فقط».

فقلتُ له: «لولاك ما ظلموا» كما قال ابن تيمية لسجّانه، ثمّ خيّرتُه بين الذّهاب إلى غزّة، أو العودة إلى سانت بطرسبرغ.

ولأنّه يكره البرد، ولأنّه يخشى الوقوع في الحرام، أو الغرق في الفودكا، اختار غزّة. ولقد سمعتُ أنّه استشهد في إحدى غارات الحرب الأخيرة.

ها أنا أعبر الباب الإلكترونيّ، حتّى الباب يبدو خائفاً إذ يصدر صوت احتكاكٍ غريبٍ بينما يسرع على غير عادته كأنّما تجرّه الجياد. ها هي المجنّدة الحمقاء تضرب رقم «هويّتي» على لوحة

المفاتيح، لا بدّ أنّها ستخاف حين تُعرَض المعلومات أمامها... لماذا تأخّرتْ بالخوف؟ ها هي ترفع سماعة الهاتف، هل تطلب طبيب أمراض القلب؟

إنّها تشير بأصابعها لي بأن أنتظر. لا شكّ أنّها أحبّتني، إنّ وسامتي تطغى أحياناً على هيبتي، فأرادت إبقائي أطول فترةٍ ممكنةٍ، متظاهرةً بمكالمةٍ طارئة. حسناً سأنتظر، فالمرأة امرأةٌ ولو كانت أظافرها مطليّةً بالدّم... .

دليل العمل في شركة برمجةٍ ألمانيّةٍ في رام الله

السّفينة

أمام الشّركة، منتظراً سيّارةً صفراء، وقفتُ مستغرباً أنّي طُرِدتُ من عملي قبل قليل، فالحقيقة أنّني كنتُ أتوقّع أن يتمّ الأمر بعد ثلاثة أيّامٍ، حين أُكمل فترة السّتّة أشهرٍ التّجريبيّة.

لكنّ ضوء النّهار المنتشر في كلّ مكانٍ أكّد لي الأمر، إذ اعتدتُ مغادرة الشّركة بعد الخامسة والنّصف كلّ يومٍ.

مرّ لقاء إنهاء الخدمة بسلاسةٍ بالغةٍ، ودار معظم الحوار -بتوجيهٍ منّي- حول تفاصيل تتعلّق بشيك نهاية الخدمة ذي الألف يورو، الذي أكّد المدير أنّ قانون العمل لا يُلزمهم به.

نظرتُ إلى أعلى التّلّة أمامي، إلى المبنى صغير السّنّ على شكل سفينةٍ، فرأيتُها تتهيّأ للإبحار، مختارةً راكبيها مسبّقاً، تحرّك علمَ البلاد فوقها -الذي بالكاد أراه من موقعي هذا- ريحٌ تهبّ من طوفانٍ لن يأتي أبداً، فأن تتوقّع طردكَ أمرٌ يختلف كثيراً عن أن يتمّ طردكَ بالفعل.

مقابلة العمل

وصلتُ الشّركة مبكّراً، بعد أن تأكّدتُ من مكان وجود العمارة قبل ذلك بيومين، فقد كنتُ أرغب في الوظيفة حقّاً.

قابلني مدير فرع رام الله، إضافةً إلى المسؤول المستقبليّ عن فريق العمل الذي سأوضع فيه.

كانت المقابلة باللّغة الإنكليزيّة، رغم أنّنا جميعاً عربٌ، كي يتأكّدا من جودة لغتي التي سأستخدمها يوميّاً في الحديث مع الأصل الألمانيّ.

امتدّت ساعتين شاملةً أسئلةً تقنيّةً، وأخرى تتعلّق بشخصيّتي.

سألاني عن نقاط ضعفي ونقاط قوّتي، عن جوانب غامضةٍ في تصرّفاتي، وعن هواياتي.

كنتُ أعرف ما الذي يودّان سماعه، وأنّ على نقطة الضّعف أن تتضمّن نقطة قوّةٍ أيضاً. قلتُ إنّ نقطة ضعفي هي هوسي بالكمال، وإنّ عليّ تذكّر أنّ الكمال بعيدٌ أحياناً عن متناول يدنا.

حدّثتُهما كيف كنتُ أحياناً أذهب إلى الجامعة بملابس النّوم، كي أذكّرهما بستيف جوبز الذي كان يذهب حافياً إلى جامعته. وحدّثتُهما أيضاً عن ذهابي بملابس أنيقةٍ كالتي يرتديها رجال الأعمال، كي أوحي إليهما أنّي شخصٌ منفتحٌ لا يحبس نفسه في تصرّفٍ بعينه.

سأل مسؤول فريقي عن سبب تأخّري سنةً كاملةً في تخصّصي، فأجبتُ أنّني لستُ شخصاً انهزاميّاً، فلم أستسلم، واستيقظتُ في سنتي الجامعيّة الأخيرة، معيداً دراسة جميع المواد السّابقة، كي أحصل في النّهاية على أعلى علامةٍ في مشروع التّخرّج.

وبعد أن أخبرتُهم أنّني شاعرٌ وكاتب قصّةٍ فازت قصّته الأخيرة بجائزة الجامعات، سألني المدير إن كنتُ أعرف الكاتب البريطانيّ نايبول، فرددتُ بالإيجاب، رغم أنّي لم أسمع به أبداً، وقلتُ تأكيداً لذلك إنّه قد فاز بجائزةٍ، فمن في النّهاية لم يفز بواحدةٍ، فأيّد المدير كلامي ذاكراً نوبل.

وقادته نوبل إلى سؤالي ما يلي:

– لو خُيّرتَ بين قراءة كتابٍ لنايبول وكتابٍ عن «الجافا»، فماذا ستختار؟

أعتقد أنّ الأمر سيعتمد على حاجتي في تلك اللّحظة، لأنّني أنظر إلى الإنسان كما أنظر إلى مركبٍ بشراعين، أحدهما العلم والآخَر الفنّ، فإن شعرتُ بأنّ أحدهما يُضعف إبحاري، فعليّ أن أشدّه. وإنّي لا أُحبّ الفصل بين كتابٍ حاسوبيٍّ وكتابٍ أدبيٍّ، فكلّ واحدٍ منهما يعلّمني شيئاً عن الآخَر، فقد تساعدني صورةٌ شعريّةٌ على حلّ معضلةٍ برمجيّةٍ ربّما أرّقتْ مبرمجاً بلا خيال.

كعكة الميلاد

كانت فترة العمل الأُولى مليئةً بالحبّ والابتسامات وأعياد الميلاد، رغم حاجز قلنديا الذي كان عليّ قطعه مرّتين في اليوم. فما إن ينتهي جسدنا الجماعيّ من تصريف كعكةٍ، حتّى نحمل أختها إلى السّطح الذي تمتلكه شركتنا، ونشعل في الشّمس رقمين، يطفئهما بعد لحظاتٍ فمنا الواحد.

اندمجتُ بسرعةٍ في المجموعة، وذهبتُ مع مديري ومسؤول فريقي وبقيّة الزّملاء، بعد أسبوع فقط، إلى مطعمٍ بحريٍّ يقع في الطّابق العلويّ من مبنى السّفينة، لنأكل وجبة سمكٍ اصطيدت للتّوّ.

كنّا نشبه قصّةً ملوّنةً يتصفّحها الآن طفلٌ، لكنّ شعوري بالاغتراب الذي بدأ يتراكم مع الوقت، وراتبي الأقلّ من 800 يورو غير المتناسب مع تكاليف المعيشة في القدس حيث مكان إقامتي، ولا مع جهدي الفكريّ المستنزف الذي نادراً ما أجده حين أغادر الشّركة، فلا أقوى على الكتابة، أو حتّى قراءة مقالةٍ خفيفةٍ، كلّ ذلك جعلني باكراً جدّاً أرجو من الطّفل أن يغلق الكتاب.

ضمرتِ ابتسامتي رويداً رويداً، إلى أن تلاشت أخيراً كحوتٍ ابتلعه البحر.

طلب المدير حضوري إلى غرفة الاجتماعات ليناقشني في أمر الابتسامة، فكتبتُ بعد رجوعي إلى البيت نصّاً عن لقائنا، استلهمتُ فيه أحد مواقف جدّي محمّد بن عبد الجبار بن الحسن النّفّريّ، هوّلتُ فيه اللّقاء كي أسخر من نفسي وأقرّعها قبل المدير.

موقف البحر

أجلسني في الميتنغ روم، فرأيتُ الملامح تغرق والشّرايين تسلم. وقال لي: «هلكتْ مراكبٌ يعبس مجذّفوها».

أراني رسماً بيانيّاً وسرقتْ شراييُنه صوتَه:

«انظر إلى مؤشّر الشّركة منذ توقّفتَ عن الابتسام».

وقالت لي: «ألا ترى أنّ السّهم يهبط مثل طائرةٍ يشتعل فيها الدّخان؟».

وقالت لي: «ابتسم الآن وإن أعوزتْكَ الرّغبة».

فحاولتُ فلم أقدر، ثمّ نظرتُ إلى الشّرايين فكانت أفاعي تتأهّب للّسع، «فاغتصبتُ ملامحي»، فحبلتُ وولدتُ سريعاً جنيناً أصفر من سفاح الذّات.

وقال لي بعد أن طَفت ملامحه وغاصت بعض أفاعيه: «من ركب ضحكته نجا».

مشروع الجيش السّنغافوريّ

رعيتُ طفلي الجديد الشّبيه بـ«ثالولةٍ»، رغم صعوبة الأمر حين يذكّر الطّفل بوالده. وربّما لهذا السّبب رعيته.

أتقنتُ عملي في مشاريع كثيرةٍ، طارداً بالموسيقى الصّاخبة أيّ سؤالٍ عن الجدوى، وأيّ فكرةٍ عن ورطة دراستي منذ البداية هذا التّخصّص، فلم أكن أرغب في العودة إلى فترة ضياع ما قبل العمل.

أثنى عليّ المديرون في اللّقاءات التّقييميّة.

أحبّني أعضاء فريقي بسبب مساعدتي لهم، ما أضفى بعض الإنسانيّة على الأمر. وساعدني على الاستمرار قضائي الوقت مع الطّبقة التي تكره المدير وأعوانه.

بعدها جاء مشروع الجيش السّنغافوريّ، الذي لم أعرف في البداية كونه كذلك، فدقّ ناقوس الخطر داخلي، مقتلعاً «ثالولة»

وجهي. قلتُ لنفسي: «أن تبتسم رغماً عنك أمرٌ، وأن تعمل في مشروعٍ لأيّ جيشٍ، ولو كان جيش صلاح الدّين، أمرٌ آخَر».

والحقيقة أنّني لم أكن أعرف عن سنغافورة سوى أنّها نظيفةٌ لدرجة منع العلكة فيها، وأنّ القيادة الفلسطينيّة وقت أوسلو كانت تطمح إلى تحويل غزّة إلى سنغافورة العرب. فازداد غضبي لمّا تقصّيتُ أمرها، بعد أن تبيّن لي أنّ جيشها شديد الصّداقة مع الذي أعبر حواجزه يوميّاً، فالأخير كان من أوائل المعترفين باستقلالها، ولم يبخل يوماً بالتّكنولوجيا «الفاخرة» على جيشها.

رفعتُ قراري الرّافض إلى مسؤول فريقي، الذي حاول بشتّى الطّرق إقناعي بأخلاقيّة العمل مع جيشٍ، فرفعه بعد ذلك إلى المدير.

اجتمع ثلاثتنا. لم أُبصر «الشّرايين»، وأبصر المدير إصراري. ولم يطردني بسبب احتياجهم إليّ في فترة الضّغط تلك.

وقال لي: «سننقلكَ إلى فريقٍ آخَر رغم خطأ قراركَ هذا».

وقال لي: «لو كان هناك أدنى انتهاكٍ للأخلاق لكنتُ أوّل الرّافضين».

وقال لي: «عليكَ ألّا تربط بين داخل الشّركة وخارجها».

وقال قبل الوداع: «سيكون للأمر عواقب».

المجد للشّيطان

أصبحتُ فخوراً جدّاً بنفسي بعد اللّقاء مع المدير. رأيتُني الـ«لا» الوحيدة في صفحةٍ تعجّ بالـ«نعم».

أخذتُ أستمع إلى سيمفونيّة بيتهوفن الثّالثة، مشاهداً إيّاه يكتب اسمي تحتها بعد حذف اسم نابليون، مردّداً مقاطع من «كلمات سبارتاكوس الأخيرة» بصوت أمل دنقل، وممجّداً الشّيطان معبود الرّياح من قال «لا» في وجه من قالوا «نعم».

ارتديتُ قبّعةً تشبه قبّعة غيفارا، في مقدّمتها شعار الشّركة المصنّعة على شكل حيوان كنغر، عوضاً عن النّجمة الحمراء.

كنتُ محتاجاً إلى إحاطة نفسي بالرّموز في وحدتي هذه، وبخاصّةٍ بعد ترْك العديد من أعضاء طبقتي العمل، وبعد فشلي في النّجاح مع الطّبقات الأخرى، التي كانت تتحدّث عن نفسها باسمٍ جماعيٍّ مشتقٍّ من اسم الشّركة، وترتدي على الدّوام لون الشّعار ومشتقاته.

موت عمّة أمّي

ماتت عمّة أمّي، فأرسلتُ في الصّباح رسالة تغيّبٍ إلى المدير، ذاكراً موتها ومرضي. طلب المدير منّي تقريراً طبيّاً متّهماً إيّاي بطريقةٍ مبطّنةٍ بادّعاء المرض، إذ كانت المرّة الثّالثة التي أتغيّب فيها ذلك الشّهر. أخبرتُه أنّني وحدي في البيت، فأهلي في العزاء، ولا يوجد من يأخذني إلى الطّبيب. ردّ على رسالتي قائلاً إنّني أصفّ أعذاراً فقط، وإنّ عدم قدرتي على إحضار التّقرير لا يعنيه، فرددتُ برسالةٍ أعنف من رسالته، متّهماً إيّاه بطريقةٍ مبطّنةٍ بالعماء النّاجم عن المنصب، مذكّراً بسماحة العقد الموقّع بيننا، الذي يُلزمني بالتّقرير فقط عند التّغيّب أكثر من يومين. تراشقنا بالإيميلات حتّى تكسّرتْ

شاشة هاتفي، ونقشتُ على آخِر حجارتي أنّني كنت سأتغيّب اليوم فقط، لكنّني سأتغيّب اليوم وغداً كي أُحضر التّقرير حسب العقد.

بعد يومين أوقفني في الطّريق إلى الحمّام. كان الحمّام متنفّسي، أقف أمام مرآته صانعاً تعبيراتٍ وجهيّةً، مخرجاً لساني لآخَري. أمرني باللّحاق به إلى غرفة الاجتماعات فتبعتُه.

أعطيتُه التّقرير الطّبّيّ قبل أن ينطق. تشاجرنا. ولم يطردني بالطّبع بسبب ضغط العمل.

وقال لي ممسكاً مقبض الباب: «عليكَ أن تعرف حدودكَ جيّداً».

فقلتُ له وأنا أغادر ممسكاً الهواء: «وأنتَ أيضاً».

قضيتُ ما تبقّى من فترتي التّجريبيّة متجاهلاً إيّاه تماماً، حتّى أنّ مسؤولة فريقي الجديدة أمرتْني أن أكون ناضجاً ومهنيّاً، ضاربةً المثل بتحمّل إهانات مديرها السّابق، إلى أن وصلتْ إلى منصبها هذا.

كان مكتبي يطلّ على مكتب المدير، الذي يضع خارطة فلسطين التّاريخيّة قرب حاسوبه، وكنتُ أنظر إليه بعيني الخياليّة ذات الأهداب السّاخرة، فأراه في صورٍ عدّةٍ، كأن أتخيّل البقعة الصّلعاء الغريبة في رأسه حفرةً صنعتْها بجزرةٍ عصابة أرانب اختطفتْه.

كيف أصبحتُ ماركسيّاً دون أن أقرأ ماركس؟

بينما كانت الأحرف على الشّاشة تولد من العدم أمامي، حلّت روح ماركس في جسدي.

قال لي: «لقد رفضتَ العمل مع الجيش، وهذا موقفٌ نبيل. لكن، ألم يكن عليك أن تستقيل بشكلٍ نهائيٍّ؟ لقد شاركتَ بالمشروع بطريقةٍ غير مباشرةٍ عندما ساعدتَ الشّركة في التزاماتها الأخرى».

ولمّا حاولتُ الرّدّ، وقف على جبلٍ في رأسي وألقى عليّ عظةً تكتظّ بلفظ «الشّركة»:

«ألا ترى أنّ النّظام الرّأسماليّ كلّه شبكةٌ واحدة؟ لنفترض أنّك عملتَ مع الشّركة (أ)، ولتكن (أ) شركةً لها أخلاق الملائكة، تعمل مع الشّركة (ب)، فحتّى لو كانت أخلاق الشّركة (ب) ملائكيّةً أيضاً، فإنّها ستتعامل مع الشّركة (ت)، والشّركة (ت) ستتعامل مع شركةٍ أخرى، إلى أن نصل في نهاية السّلسلة إلى التّعامل مع شركةٍ أخلاقها شيطانيّة. إذن، كلّنا نتعامل مع الشّيطان ولو بطريقةٍ غير مباشرةٍ، فأيّ قطرةٍ تضعها في البحر، سترفع منسوبه لدى الجميع».

أدركتُ عندها أنّ الرّأسماليّة تجعلنا كلّنا مذنبين، نتفاوت في الذّنب فحسب.

طريق رام الله القدس

في طريق العودة إلى ضياع ما قبل العمل، وبعد تذكّري محاضرة التّنمية البشريّة التي أعطتها موظّفةٌ ألمانيّةٌ في الشّركة، عن أنّ هدفهم هو صنع السّلام في الشّرق الأوسط، أخذتُ أقلّب أفكاري بحثاً عن حلٍّ. أين سأعمل الآن؟ كيف سيكفيني راتبي إذا عاودتُ

العمل في رام الله؟ هل سأقضي بقيّة عمري على حاجز قلنديا؟ هل أملك خياراً آخَر في القدس غير الشّركات العبريّة أو العربيّة التي تعمل معها؟ هل سيغيّر من الأمر شيئاً عملي في وظيفةٍ غير برمجيّةٍ؟ ماذا عن الكتابة؟ وهل هناك بديلٌ للرّأسماليّة يا ماركس؟

كان يبدو أنّ شبحه غادر حين اصطدمنا بمطبٍّ في الطّريق، فأعادتني الضّربة إلى خارج النّافذة، فأدركتُ اقترابنا من أزمةٍ من أزمات قلنديا.

ولكي أواسي نفسي، أخذتُ أتذكّر الأزمات المروريّة التي قضيتُها على الحاجز. كانت الأزمات طويلةً إلى درجة تحوّل المركبات وحدها إلى الموديلات الجديدة، ومغادرة العجلات القديمة أماكنها لتحلّ مكانها عجلاتٌ جديدةٌ. وأحياناً كان السّائق يتطوّر، فتنبت له أجنحةٌ يهرب بها من النّافذة، قبل أن يوقفه حاجزٌ في الهواء، فيرميه من أعلى مقصوص الجناحين نحو الأرض خلف الحاجز، فتأتي قطّةٌ وتقود عنه. كنّا نرتدي في أوّل الطّريق ملابس صيفيّةً، وفي آخِره كنزاتٍ صوفيّةً. وأتذكّر المرأة التي تحدّثتْ مع زوجها على درجات الباص عن نتيجة حملها، والتي أنجبتْ طفلها حين اقتربنا من الجنود. وأمام كلّ هذا، لم يكن لديّ إلّا تلك العين، فأجعل الجميع يترجّلون من سيّاراتهم، فيرقصون ويغنّون معاً على سطوحها، معيدين قنابل الغاز إلى أصحابها بمضارب تنسٍ، فيرتعب الجنود الخائفون من كسر الألفة مع المشهد أمامهم.

نزلتُ من الباص بعد انتهاء الأزمة الأُولى، وتوجّهتُ إلى أزمة المشاة. كان الحاجز خالياً، فاستقبلتُ بفرحٍ هدايا الاحتلال، الشّبيهة بتصاريح العمل التي يكافئون بها بلدةً لم ترمِ الحجارة.

تمدّدتُ على مقعدي في الباص قرب النّافذة، كأنّي أجلس في سفينة النّجاة، بعد أن سلمتُ من مزاج الحاجز.

نظرتُ من النّافذة وأنا أشدّ القبّعة الصّوفيّة على رأسي، فشاهدتُ ذلك الجنديّ القصير الذي سخرتُ منه في سيّارة أصدقائي قبل أسابيع. حينها انتبه إلى ضحكتي وأوقفنا على جانب الحاجز، مدركاً سخريّتنا منه. صرختُ فيه، فأراد التّشاجر معي ليثبت قوّته للمجنّدة قربه، وحال بيننا حارس الأمن العربيّ، الذي أمرني أن أُوقف ضحكي، وألّا أرفع صوتي، وذكر أنّه يستطيع احتجازي -حسب القانون- أيّاماً هنا.

أوقف الجنديّ مجموعة عمّالٍ عائدين، سائلاً إيّاهم عن تصاريح العمل. وبعد تأكّده منها، نظر إلى المجنّدة قربه وأخذ يفتّش أحدهم جسديّاً. حدّقتُ من النّافذة في وجه الجسد المفتَّش، كان وجهي. كان الجنديّ ينتقم من صراخي في ذلك اليوم. أردتُ السّخرية فلم أستطع، وردّد الصّوت داخلي المقطع الأخير من القصيدة بلا لحنٍ. أنهى الجنديّ تفتيشه وقال لي: «جيّدٌ أنّكَ بدأت تعرف حدودكَ».

أعادني إلى أوّل الحاجز من الباب الإلكترونيّ. كان الحاجز في ظلمة الفجر مكتظّاً عن آخِره، والنّاس أسماكٌ تحاول أن تجد لها مكاناً في شبكة الصّيد.

طريق القدس يافا

أمام فندق «الوطني» في شارع الزّهراء، قابلتُ صديقتي ياسمين التي تزور فلسطين لأوّل مرّةٍ، كي تشاهد عن قربٍ وطن جدّتها لأمّها. عبرتِ الحدود بجوازها الأميركيّ، فأنكرتْ أصلها الفلسطينيّ، حين سألها الجنديّ بتهكّمٍ -بعد أن أخبرتْه بأنّها أردنيّةٌ- إن كانت هنا كي تطالب بـ«إرث» أجدادها، فأكّدتْ له بأنّها جاءت لتصلّي فقط.

كانت السّاعة قد اقتربتْ من التّاسعة، وكانت ياسمين ترغب -رغم تعب السّفر- في السّير في ليل القدس. والقدس -لمن لا يعرفها- مدينة أشباحٍ في اللّيل، لا تعرف السّهر في أيّ فصلٍ، تغرب الشّمس عنها قبل غيرها، فرحّبتُ بالفكرة كي يحجب قليلاً اللّيل عنّي حاضرها.

عبرنا في البداية شارع صلاح الدّين متّجهَين نحو باب العامود، الذي قلتُ لها إنّ اسمه أيضاً باب دمشق، حيث كانت السّيّارات تحمل المسافرين إلى «الشّام»، فشعرتْ صديقتي بالتّأثّر، إذ تعمل في برامج الصّحة النّفسيّة الخاصّة باللّاجئين السّوريّين. أخبرتُها عن القنبلة التي فجّرتْها عصابات الإيتسل (الإرغون) فيه

على مرأى «الانتداب» البريطانيّ، وعن محاولات تهويده المستمرة، وكيف «رمّموه» مع أجزاءٍ أخرى من السّور، كي يمتلكوا شاشة عرضٍ لقصصٍ يرويها «مهرجان الأنوار».

كانت البلدة القديمة الفارغة من المشاة توحي بجمالٍ جليلٍ تحت المصابيح الصّفراء، جمالٍ يشبه التّحديق مرتعشاً في هاويةٍ من صخرٍ أزرق. مشينا في السّوق المغلق كالمحلّات السّابقة في طريقنا، وركض قربنا سكّان المدينة السّفليّة من الفئران و«العِرَسْ» التي استيقظتْ لتوّها. قصّت عليّ ياسمين قصصها مع الأطفال اللّاجئين، العالقين في اليونان، والمصاب أكثرهم بالصّرع، ومحاولات العديد منهم الانتحار بالأدوية المقدّمة إليهم.

كانت ياسمين مبهورةً بالتّجوّل لأوّل مرّةٍ في البلدة القديمة، فشعرتُ بالغيظ من استمتاعها الذي بدا لي محايداً، فقلتُ لها إنّني لا أُحبّ القدس، أراها مدينةً ملعونةً بقدسيّتها، لا أشعر بالانتماء فيها سوى لطفولتي، لكنّني أرتبط بها أخلاقيّاً، ففلسطين بالنسبة إليّ قضيّةٌ أخلاقيّةٌ قبل كلّ شيءٍ، وذلك ما يجعلنا بشراً في النّهاية.

وفي منطقة باب الخليل، وقفنا على الجسر المطلّ على الشّارع المؤدّي إلى «غربيّ» القدس، إلى الأحياء العربيّة ذات العمارة السّاحرة المهجّر أهلها في النّكبة، حيث يركض الغزاة وكلابهم الأليفة فوق السّكّة المتبقّية، مكان قطار القدس – يافا. أريتُها مجمّع «ماميلّا» التّجاريّ قربنا، الذي لم يغلق أبوابه بعد، والذي يسرق السّيّاح من محلّات البلدة القديمة.

أكملنا سيرنا في الطّريق المحاذي للسّور، تتبعنا موجة مستوطنين منتشين بعصرهم الذّهبيّ، عائدين من التّعبّد ليهوه أمام حائط

البراق. وحين أصبحنا في قلب الموجة، غيّرتُ متعمّداً لغة الكلام من الإنكليزيّة إلى عربيّةٍ صاخبةٍ في صمت الملح، فانحسرتِ الموجة عنّا عائدةً إلى هديرها الذي لا يملّ تخويف فراخ السّمك.

أمام باب العامود، متّجهَين نحو الفندق من جديد، أخبرتْني ياسمين قصّة جدّتها:

«كان عمرها 17 عاماً. تعيش مع أشقّائها الكثر في البلدة القديمة في يافا. كان والدها رجل دينٍ، لكنّه كان يؤمن بحرّيّة جميع أبنائه. وفي أحد الأيّام، أخبرتْها صديقاتها أنّ جاراً وسيماً يدرس الطّبّ في الخارج عاد بعد سنواتٍ عديدةٍ لزيارة أهله. صمّمت جدّتي على لقاء العائد الغامض، وعلى سرقة قلبه قبل باقي الفتيات، فطلبتْ من أمّها أن تدبّر هي وأمّه لقاءً معه. لم يكن الشّاب راغباً في الزّواج من بنات بلده، لكنّ أمّه اللّحوحة أقنعتْه بلقائها، فاتفقا أن يقوم باستراق النّظر إلى الفتاة القادمة مع أمّها، فيخرج بملابس النّوم إن لم تعجبه، وبملابسه العاديّة إن أحبها. وفي يوم اللّقاء، وبعد استراق النّظر، تأخّر في الخروج فشعرن بالقلق، وحين خرج لمقابلتها كان يرتدي بدلته التي لا يرتديها إلّا في أهمّ المناسبات، فقد سلب جمالها عقله المسافر. وبعد أن تحدّث العاشقان ساعتين، قرّرا الزّواج بأسرع وقتٍ...».

أمام الفندق، أخبرتْني ياسمين أنّها ستكمل القصّة حين نلتقي غداً.

* * *

عصراً في السّيّارة، انتظرتُ صديقتي العائدة من الصّلاة في الأقصى. أكملتْ قصّة جدّتها في الطّريق إلى يافا:

«بعد الزّواج، سافرتْ جدّتي مع جدّي لينهي دراسته. تركتْ مدرستها كي تكون معه، وأنجبتْ هناك. لكنّه بدأ يهمل دراسته، فغضبتْ عليه وعادت مع طفلها إلى فلسطين، ثمّ ذهبتْ إلى الأردن بعد النّكبة. ويبدو أنّ خطّتها نجحتْ في توبيخه وإثارة شوقه، إذ تخرّج بتفوّقٍ، وانضمّ إليهما في عمّان حيث عمل طبيباً...».

أخبرتْني صديقتي أنّها ستكمل القصّة فيما بعد. فكّرتُ أنّ طريقتها هذه في القصّ تهدف إلى إبقاء قصّة جدّتها أطول فترةٍ معنا.

اقترحتُ النّزول إلى متنزّهٍ يدعى «أيالون–كندا»، مقامٌ في اللّطرون –بتمويلٍ من يهود كندا وغيرهم– على أراضي القرى الفلسطينيّة، كعمواس التي طُهّرَت من أهلها ودُمّرَت العام 1967. جلسنا على صخرتين ناظرَين إلى شواهد قبور الجنود الأردنيّين، الذين استشهدوا في معارك حالت العام 1948 دون احتلال «شرقيّ» القدس. حكيتُ لها عن الجنديّ الذي لم يعرف أهله مكان دفنه في فلسطين، الشّاب الذي طلب من والده الزّواج فأخبره أنّه سيزوّجه بعد عودته من نصر فلسطين، فيكون العرس عرسين.

صمتنا لنحاول الاستماع إلى أصوات الشّهداء. قطع خشوعنا عبور طائرة «العال» متّجهةً نحو مطار اللّدّ (يسمّونه «بن غوريون»)، فتخيّلتُني أضربها بحجرٍ أحمر فتتهاوى على الواجهة الزّجاجيّة للمطار، لكنّ الذي لم أتخيّله هو أنين الشّهداء المعذّبين كأنكيدو في عالمه السّفليّ.

أكملتِ القصّة في الطّريق إلى يافا:

«في عيد الاستقلال الأردنيّ، بينما كان موكب الملك يجوب الشّوارع، مشى جدّي مع النّاس المحتفلين. فجأةً، بدأ يتصرّف بغرابةٍ، ما جعل الحرّاس يشكّون به قافزين عليه، دون أن يعرفوا أنّ السّبب أزمةٌ قلبيّةٌ أصابته عندها، فمات تحت أجسادهم تاركاً زوجته -البالغة من العمر 26 عاماً والتي لم تكمل تعليمها- مع ثلاثة أطفالٍ...».

ركنتُ السّيّارة في مكانٍ تُشاهَد منه البنايات الشّاهقات في «تل أبيب»، التي لا تزال تقصف يافا منذ النّكبة. مشينا نحو الجانب العُلويّ من البلدة القديمة. تحدّثنا عن المدينة التي كانت عاصمة فلسطين الثّقافيّة، التي حطّ على سواحلها أشهر الفنّانين العرب، كأمّ كلثوم وعبدالوهاب. الثّقة في الجيوش العربيّة القادمة، أخبار المجازر، الحصار، والهجمات المتعدّدة التي قامت بها عصابات الهاغاناه (التي كانت جيشاً كاملاً) والإيتسل (التي تمتلك متحفاً في المتنزّه الذي كان يوماً حيّ المنشيّة)، كلّ ذلك فرّق أهلها بحراً وبرّاً في الجهات كلّها، سوى قلّةٍ جُمّعَتْ في «غيتو» حيّ العجمي المحاط بالأسلاك والبنادق.

دخلنا البلدة القديمة التي فجّر الإنكليز أجزاءً كبيرةً منها العام 1936 انتقاماً من يافا، والتي أصبحتْ بيوتها إقاماتٍ لـ«الفنّانين» حتّى «يلهمهم» طرازها المعماريّ، والبحر الذي تطلّ عليه نوافذها. شاهدنا بيت طفولة الفنّانة التّشكيليّة تمام الأكحل، الذي أصبح غاليري «تمتلكه» شوشانا فلنكشتاين. وأوحى إليّ وجه صديقتي، في أثناء سيرنا، أنّها تشاهد شبح جدّتها وهي شابّة.

فجأةً، توقّفتْ مشيرةً إلى أحد البيوت كأنّ الشّبح دلّها عليه، وقالت: «ها هو بيت جدّتي». أخذتْ تتلمّس حجارة مدخله ناظرةً من نوافذه الغارقة في العتمة. فُتح الباب وخرج علينا ظلٌّ تحدّث معنا بالعبريّة مستهجناً وجودنا. نظرتُ إليها فكان شبح جدّتها قد سكن وجهها، والصّمت يرسم صورة يافا وهي تتلاشى في الطّريق إلى المنفى.

مشينا في الزّحام نحو البحر كي نغسل التّاريخ عن جلدينا. وضعنا قدمينا في الماء، فشعرنا بصاعقةٍ من ثلجٍ حفرتْ عظامنا، ففي تلك اللّحظات -كما سنعرف لاحقاً- غرق مركبٌ مثقلٌ باللّاجئين في المتوسّط قرب السّواحل اليونانيّة.

عدنا بعدها إلى القدس. ذهبنا إلى «المطلّة» في جبل الزّيتون، التي تشرف على البلدة القديمة المضاءة بأضواء قبّة الصّخرة. كانت قبور أعدائنا ترقد بسلام قربنا، أردتُ أن أُخبر ياسمين أنّ الكثير من القبور فارغٌ، لكنّي آثرتُ أن نستمتع بلحظةٍ إنسانيّةٍ نحاول فيها تأمّل المكان منتزعاً من «الزّمكان»، ولم أستطع الصّمت فسألتُها:

«وماذا حدث لجدّتكِ بعد ذلك؟»

شبحٌ يراقص بحيرةً

ذلك الصّيف

لماذا أتذكّرها الآن؟ أهو الطّقس؟ أهي درّاجة تلك الفتاة الصّغيرة، وشعرها القصير؟

حين انتقلتُ إلى حيّنا كان كلّ الأطفال قد انتقلوا قبلي، ثمّ انتقلتْ هي. وكانت فترة تعارفنا قصيرةً جدّاً، كسمكةٍ وقعتْ في الأسر، لم تكد تبدأ بالتهام الطُّعم، حتّى وضعها الصّيّاد في علبة الثّلج.

كان اسمها تينا، ولكم أن تتخيّلوا وقْع الاسم على طفلٍ لم يعتد طوال حياته القصيرة سوى أسماءٍ غليظةٍ كجذوع الأشجار. تينا! يا له من اسمٍ تقفز الغزلان فيه! يا له من اسمٍ يشبه صاحبته!

كانت تربط شعرها الأسود دائماً، قبل أن تقصّه في أسبوع الوداع، ولا أتذكّر أنّي رأيتُه يوماً مسرّحاً. كثيراً ما كانت تضع قبّعةً رياضيّةً على رأسها، وحين يبتعد العصر كانت تعكسها كأنّها تعطي الإذن للّيل بأن يصبح قبّعة. سروالها القصير يُبرز ساقين تعجّان بجروح الصّيف كنهرين من سمكٍ ملوّنٍ، وكانت تخبّئ يديها في جيبيه.

أتذكّر يوم قابلتُها أوّل مرّةٍ، كنتُ قد تشاجرتُ مع أمّي كالعادة بسبب نتيجتي في امتحانٍ ما، وربّما صرختْ أمّي وقتها:

– خلّي ولاد صفّك يسبقوك، بينك وبين التّاني عُشرين، خلّيك تصير الطُّشْ عالصّف.

– خلّيهم يسبقوني مش هاممني، بس ولا واحد بسبقني بالبسكليت، أنا أسرع واحد بالصّف!

– بسكليت؟ شو بدّك تصير لمّا تكبر يا حمار؟ سوّاق بسكليتات؟

– آه، أحلى إشي، وإنتِ لحالك حمارة.

لا شكّ في أنّ الصّفعة كانت قويّةً، فطيّرتْني ألماً إلى السّاحة. جاءت تينا. مدّت يدها إليّ بتفّاحةٍ، واليد الأخرى بالملح، وقالت:

– زاكيةٍ مع الملح كتير. إنتَ زَلَمَة، والزلام ما ببكو.

– أنا صالح مش زَلَمَة، شو إسمك إنتِ؟

– أنا تينا.

– جد؟ أوّل مرّة بسمع بهيك إسم.

– هادا لإنّك أهبل. حلوة بسكليتك، تسابق؟

هل كانت سريعةً حقّاً وقتها؟ أم أنّي تعمّدتُ البقاء خلفها كي أرى ذيل شعرها يتحرّك على إيقاع تبديل الدّوّاستين؟

اشترينا بوظة وضحكنا على العشب. أخبرتْني بأنّي أبطأ ولدٍ شاهدتْه في حياتها، فتعلّلتُ بأنّها بنتٌ، وبأنّي أخاف أن تبكي إذا خسرتْ، فضحكتْ ساخرةً منّي.

كانت لها أختٌ تكبرها بأعوامٍ كثيرةٍ. كانتا دائمتي التّشاجر، أسمع أصواتهما حين أمرّ بالقرب من باب منزلهما. كانت أمّها بيضاء

الشَّعر، وكانت تينا تقول لي إنّ أمّها تكرهها وتقف دائماً في صفّ أختها، وبعدها تجهش: «بس لو كان هون!». لم أرَ والدها أبداً، ولم أجرؤ على سؤالها.

– مين هادا إلّي حاططتيه بسِنْسالِك؟

– ما بتعرف حنظلة يا حمار؟

– ...

– هادا الولد رسمو ناجي العلي، ولد صغير كتير، هادا زيّي، الكل داير ضهرو إلو. بتعرف إنهم قتلوه؟

– ليش؟

– واحد طخّو بفرد لإنّو ما عمل غير الّي براسو، وأنا زيّو ما هأرد عحدا حتّى لو طخّوني.

– وإنتِ كيف بتعرفي كل هاد؟

– ناجي قلّي قبل ما يروح.

لم أكن وقتها أعرف أنّ ناجي هو اسم والدها، ولا أدري إن كانت سلسلتها ذكرى منه أم لا. رغبتُ في سلسلةٍ مثلها. أمّي قالت إنّ السّلاسل للبنات فقط: «إنتَ بنت؟».

– في عصفور بشَعرك!

– خلّيه، شعري كنبايتو لمّا يتعب من السّما بقعد عليه.

– تبيعي حنظلة؟

– مستحيل! هادا أغلى إشي عقلبي. تلعب الزّقطة؟

في تلك الفترة، حين بدأتْ علاقتنا تتوطّد، ظهر ابن الجيران عبد الله. لم أكن قد لاحظتُه إلّا حين بدأ يكثر اللّعب والكلام معها. كانت تينا تكبرني بعامين، وكان هو يكبرها. ولا شكّ أنّ درّاجته الحمراء الحديثة بغياراتها العديدة، تجعل من درّاجتي الزّرقاء «الأوتوماتيك» -كما كنتُ أواسي نفسي- دمية أطفالٍ أمام شاحنةٍ تسحقها بلمسةٍ واحدة. وحين تسابقنا، كانت تينا هي الجائزة. وأُقسم أنّ كلمة «تلات» لم تكد تنتهي حتّى وصل نهاية الطّريق. كانت درّاجته مزيّنةً بجرسٍ يُصدر العديد من الأصوات، وكان قلبي يهتزّ كقدّاس الكنيسة حين أراها راكبةً خلفه.

تشاجرا مرّةً في ليلةٍ كان أطفال الحيّ الأكبر سنّاً يشوون فيها البطاطا بالجبل القريب. كانت البطاطا محروقةً. تجمّعنا حول نارٍ. أخذنا نغنّي حيناً، ونلقي القصص أو النّكات أحياناً أخرى. كانت تينا تجلس قربي، وعبد الله في الجهة المقابلة. وضعتْ رأسها على كتفي، وتكلّمتْ بعينين تشتعلان حزناً يلمع:

- إنتَ أخوي، أنا ما عندي إخوة غيرك.

أتذكّر فرحي وقتها. شعرتُ أنّ درّاجتي أصبحتْ فجأةً بمحرّك سيّارة سباقٍ، وبأنّي سبقتُ عبد الله.

في ذلك الصّيف أمطرتْ. كان جبلنا غباراً منفوشاً يلمع تحت الشّمس، إذ حفرتْه الجرّافات كي يقام بعد ذلك بسنةٍ مبنىً قبيحٌ يحجب الشّمس عنّا. ولأنّها أمطرتْ بغزارةٍ، فقد صار الجبل بحراً. وقفنا على أحجاره. اصطادت تينا سمكةً دلّها العصفور عليها، وحين حاولتِ اصطياد واحدةٍ أكبر، زلقتْ قدمها على الصّخرة

الرّطبة، فاصطادتها موجةٌ عالية، ولا أدري كيف قذفتُ جسدي خلفها.

لم أتعلّم من أوّل غرقٍ لي: كنّا في البحر الميّت، وكان أبي قد اشترى قارباً يُنفخ، ركبه مع أولاد خالتي وتركوني في أوّل الماء. طاردتُهم دون انتباهٍ، حتّى شعرتُ أنّ الرّمل استُبدل تحت قدميّ بالهواء. عندها بدأتُ أغرق. بلعتُ كثيراً من الماء، وضحك الكثيرون منّي، وقالوا: «هادا أوّل غريق في تاريخ البحر الميّت!».

غرقتُ مرّتين إذن: حيث لا يغرق حجرٌ، وفي حفرةٍ قرب البيت، لكنّي أقسم أنّي لم أكن خائفاً على نفسي أبداً في الثّانية. شاهدَنا جارٌ لنا كان مارّاً فانتشلنا. صفعني أبي أوّل مرّةٍ في حياته. بلعتُ دموعي كأنّني أغرق مجدّداً في البحر، إذ تذكّرت أنّي «زَلِقة». مُنعتُ من ركوب الدّرّاجة، ومن اجتياز بوّابة السّاحة السّوداء، فكان على تينا أن تأتي إلى ساحتنا حتّى نتمكّن من اللّعب معاً، لكنّها كانت تفضّل جبالاً جديدةً وصحبة آخَرين.

لم أكن أعرف حين جفّت الحفرة أنّ حكايتنا أيضاً بدأتْ تجفّ. قالت إنّ والدتها لم تعد قادرةً على دفع الإيجار في بيتهم هذا، وإنّهم سينتقلون إلى واحدٍ جديدٍ.

– رح تاخدي العصفور معك؟

– العصفور؟ بطّل ييجي. شكلو بحبّش الدّم!

– أنو دم؟

– لسّاتَك صغير، بس تكبر بتعرف.

كانت ترتدي بنطالاً طويلاً. صافحتْني لأولّ مرّةٍ، وهمستْ: «ما رَحْ أنساك». ركبتْ درّاجتها التي قالت إنّ أمّها ستبيعها. كان شعرها لا يزال مربوطاً.

نزلتْ عن الدّرّاجة. ركبتِ السّيّارة. ولأوّل مرّةٍ منذ العقاب، تخطّيتُ البوّابة السّوداء. كنتُ سريعاً جدّاً، لكنّ السّيّارة كانت أسرع.

وقفتُ قرب باب بيتها. لمعتْ كفّ أبي على خدّي. بدا أنّ كلّ الدّموع المكتومة بقيتْ في مكانٍ ما تحفر نهراً خفيّاً، وفاض، حين شاهدتُ عبد الله عائداً من جهة السّيّارة، وسلسلة حنظلة في رقبته.

زهرةٌ في أخدودها

في سويسرا في إحدى البلدات القريبة من ألمانيا، قابلتُ امرأةً تكبرني بعشر سنواتٍ. كان اسمها ذو الوقع المائيّ يعني زهرة اللّوتس. التقينا في مخيّمٍ دوليٍّ في الصّيف، محاطٍ ببانوراما خضراء لانهائيّةٍ.

كانت آخِر الواصلين، وعلمتُ، إذ رأيتُها، أنّ شيئاً سيحدث بيننا.

اقتربتُ منها بثقة شخصٍ خرج لتوّه من شرنقة طفولته، خلع نظّارته الطّبّيّة، قصّ شعره غير المسرّح، ونظر إلى صورته في المرآة فأعجبتْه.

تحدّثنا قليلاً، وأشارت في الحديث القصير إلى وسامتي. ساعدتُها في حمل حقائبها وأنا أنظر إلى شعرها الأشقر المربوط، الذي تلامس بعض خصلاته الهاربة سترتها. شكرتْني، وتمنّت لي ليلةً سعيدةً، وهي تلمس للمرّة الأُولى خدّي.

في الصّباح استيقظتُ باكراً. فتحتُ باب المنزل الكبير، ورأيتُ المشهد أوّل مرّةٍ في الضّوء، فأبصرتُ صفّ الأشجار الذي يسوّر الكوخ في الأسفل، والبلدة ببيوتها البعيدة التي تشبه لُعَب

الأطفال، والخضرة المتدرّجة في تلالٍ تنتشر فيها أشجارٌ لونها أغمق من عشبها، والجبال الصّخريّة الجرداء سوى من بعض الثّلج الذي يضرب جذوره، والتي تحجب ما وراءها.

وعلى كرسيٍّ خشبيٍّ أبيض على يميني، محوّطةً بعبق الزّهور التي لا أعرف اسمها، ورائحة القهوة بين يديها، رأيتُها. كانت أوّل المستيقظين، لا يزال وجهها يحمل آثار الوسادة. شعرها الأشقر الممتزج بأسود لم أنتبه إليه في الأمس، يكتب رسالةً لامرئيّةً على كتفها العاري، الكتف الذي يطلّ على كنزتها الرّماديّة التي تغطّي جزءاً من ذراعها.

نادتني وهي تحيّيني بابتسامةٍ صباحيّةٍ، فبدت امتداداً للمشهد أمامها. وفي الطّريق إليها كانت الأجراس في أعناق الأبقار خلفنا ترنّ لي. جلستُ قربها منتبهاً إلى لون عينيها في الشّمس، الذي يضفي على المشهد درجةً ثالثةً من الأخضر، فأصبحتُ جبلاً من عشبٍ يجلس بين الجبال في الأفق. مرّرتْ يدها برفقٍ على ظهري دون أن تتكلّم، فوقع الثّلج عن قمّة أبعد الجبال أمامنا. أخذنا نتأمّل المشهد بصمتٍ، كأنّنا ننظر في مرآةٍ تصقل صورتنا.

بعد ذلك استيقظ الآخرون، أحاطونا بمشروباتهم السّاخنة وبتثاؤبهم، أخذوا يمدّون الجسور بينهم، لكنّنا كنّا محاطَين معاً في مشهدنا بجدارٍ شفّافٍ، انهار فقط حينما نودينا للفطور.

بعد الطّعام، نزلنا جميعنا إلى القاعة التي تجري فيها نشاطات المخيّم، كي نستمع إلى إحدى النّدوات. وصلتْ متأخّرةً، كان المكان على الأرض قربي شاغراً، فجلستْ حافيةً. أخذتُ، عوضاً عن

الاستماع إلى النّدوة، أشاهد أصابع قدميها خيولاً بيضاء برؤوسٍ سوداء. وعندما ألصقتْ رأسي بذراعها المكشوفة، والمصبوغة قليلاً بالشّمس، شاهدتُ الخيول تركض على الموج.

وفي الأيّام التّالية، كنّا نقضي الوقت دائماً معاً. أشاركها الرّقص في القاعة محاطَين برقص الآخَرين. يغنّي الجميع معاً فأحاول الاستماع إلى غنائها فقط. نتحدّث في أوقات الفراغ أمام المشهد عن تفاصيل حياتنا. تمسك يدي ضاغطةً عليها كلّ هنيهةٍ، وتقبّلني دائماً على خدّي قبل النوم.

كنتُ أكتشف تفاصيل جسدها على مهلٍ، الشّامة على خدّها القريبة من أذنها، النّمش الخفيف على الظّهر، الخدش في سنّيها الأماميّتين، الذي يشبه النّدبة التي وضعها الإغريق في وجه هيلين كي يكتمل، والزّاويتين المحيطتين بشفتيها عندما تبتسم نصف ابتسامةٍ.

وعندما أخبرونا في القاعة أن نفعل ما تقوله لنا الموسيقى الشّبيهة بصوت الماء في الحدائق اليابانيّة، تنوّعتْ ردّات الفعل، شاملةً الرّقص الجماعيّ أو الفرديّ، الغناء، الرّسم، البكاء، والعناق، الذي قمنا به معاً أنا وهي في الوقت ذاته.

كان عناقاً أشقر، غابت يداي في شعرها المسترسل على ظهرها، غاب وجهي في نبضها الصّاعد إلى كتفها، تحرّكتْ يداها على ظهري، وأغلقتْ رائحتها عينيّ، فتحوّلتُ رويداً رويداً إلى سفنٍ يطول شعرها ليصبح حبالاً لأشرعتها، سفنٍ تنقل الذّهب والرّمل، تنقل السّنابل، تنقل الماء والهواء والشّعراء، لو خرجتُ وقتها إلى الشّارع لسطا عليّ النّاس.

توقّفتِ الموسيقى، غادر الآخَرون، وبقينا متعانقَين. ولمّا لم نعد قادرَين على العناق، نمنا على الأرض شاعرَين بحرارة جسدينا، متّخذَين وضعيّة الجنين في الرّحم. وبعد أن استيقظنا، ألقيتُ عليها قصيدةً من دفترٍ صغيرٍ أخرجتُه من جيبي، إذ أصبحتُ فجأةً أكتب الشِّعر قبل أسبوعٍ من سفري، فرقصتْ على إيقاع قصيدتي جاعلةً الغيوم تمطر في الخارج.

شدّتني من يدي، وخرجنا من النّافذة الكبيرة في القاعة. تسلّقنا المنحدر خلف البيت، ومدّت ذراعين نحو السّماء وهي تنظر إلى أعلى، فقلّدتُها. بقينا على حالنا تلك فترةً من الزّمن لا أدري كم طالت، ولم نشعر بشيءٍ سوى بالمطر يهطل تحت ثيابنا.

في اليوم الرّابع، ذهبنا جميعاً إلى الغابة المجاورة. كان الطّقس غائماً وكنّا الأبطأ في المشي، فتخلّفنا عن المجموعة.

أمسكتْ يدي وضغطتْ بقوّةٍ كعادتها، نظرتْ فيها، ثمّ قالت سنتّخذ خطوطها بوصلةً.

الخيط الأوّل وضع في طريقنا شلّالاً صغيراً، كنّا نستطيع الصّعود مستخدمَين الطّريق المعدّ لذلك، لكنّنا لم نغشّ. تسلّقنا الحجارة الرّطبة قرب الشّلّال، وكدتُ أقع في الماء لولا أنّها أمسكتْني من الخلف.

الخيط الثّاني أخذنا إلى مكانٍ يزوره النّاس، يحتوي على العديد من البرك، تتفتّح في إحداها زهرة لوتس كبيرة الحجم كأنّها تتهيّأ لولادة مخلّص العالم، فأخبرتْني، وهي تحدّق في المشهد، أنّ اسمها يعني هذه الزّهرة.

الخيط الثّالث أوقفنا أمام مساحةٍ كبيرةٍ تعجّ بأشجارٍ تلتصق معاً كأنّها شجرةٌ واحدةٌ. أنهت حديثنا واضعةً إصبعها على فمي، قائلةً إنّ علينا الاستماع إلى صوت الرّيح وهي تخترق الحقل، وصوت النّسغ وهو يصعد من الجذور كي يقابل الرّيح في الأوراق.

صمتت الرّيح، فأشارت عليّ بأن أمتصّ السّكون بكلّ خلاياي، ففعلنا كلانا بالأمر ذاته.

بعدها قامت بتقليد صوت أكثر من طائرٍ، كأنّها تنشئ حواراً بلغةٍ سِرّيّةٍ، فبدأتِ الطّيور في الأشجار أمامنا بالحديث معها، فأصبحتُ أيضاً عصفوراً على كتفها يتحدّث لغتها.

الخيط الرّابع كان بِركةً سبحتْ فيها بملابسها الصّيفيّة تحت الملابس الشّتائيّة. طلبتْ منّي مشاركتها لكنّي كنتُ أشعر بالبرد، وبالرّغبة في ألّا أجعل حاجزاً بينها وبين الماء. شاهدتُها جالساً على صخرةٍ وهي تختفي طويلاً في العمق، كأنّ ذرّات جسدها تعود إلى أصلها المائيّ، ثمّ تصعد صانعةً دوائر حولها، لتسبح بعد أن تختفي الدّوائر على إيقاع هواء الغابة، كأنّها موجة أفاعٍ ترشح من جسد نمرٍ ذهبيٍّ، يراوغ الموت، ويتّحد معه في الوقت ذاته.

تعبتْ، فتسلّقتْ صخرةً في منتصف البِركة لم أكن قد انتبهتُ لوجودها، كأنّها صعدتْ لحظتها من الأعماق. وقفتْ على الصّخرة وهي تصرخ وتدور حول نفسها بذراعين كالأجنحة، لتصبح ضحكةً وحشيّةً بين شفتَي الغابة خلفها.

الخيط الخامس أعادنا إلى البيت. مشتْ بملابسها الصّيفيّة وهي تقطر جدولاً صغيراً يلهث خلفها. نظرتُ إليها، فطلبتْ منّي

ألّا أقلق، لأنّ الشّمس ستشرق بحرارة الصّيف بعد قليلٍ، فصدّقتُها.

أخبرتْني أن أنظر دائماً إلى الأفق، كي أجعل اللّانهائيّ ينعكس عليّ، وأضافت وهي تضحك أنّ التّحديق في البعيد يطيل العمر، فصدّقتُها أيضاً، فعقلي كان جالساً على البيض في الأعشاش حولنا.

أشرقتِ الشّمس فخلعتُ سترتي واضعاً إيّاها في الحقيبة على ظهري. أمسكتْ يدي، وطلبتْ منّي أن أغلق عينيّ، وأن أنظر إلى الوهج من خلف جفنيّ.

أغلقتُ عينيّ وفعلتْ مثلي. كانت خضرة عينيها التي أبصرتُها قبل أن أغمض تختلط بالشّمس، وبالحرارة التي تصعد من يدها في يدي. دخلنا ممرّاً فتغيّرتْ درجة الضّوء. فتحنا عيوننا، فشاهدنا سقفاً فوقنا تصنعه الأغصان وأوراقها، كأنّه شبكة صيدٍ تقطر الشّمس من خلالها. أغلقناها فاختلطتِ الألوان مجدّداً، وأعطانا كلّ ما حولنا لونه، حتّى النّمل تحت التّراب.

فتحنا عيوننا بعد ذلك. تحدّثنا، ونحن نمشي ببطءٍ نحو البيت كأنّنا نجرّ الغابة، عن العديد من الأشياء، كالأبديّة، والرّوح، والموت، والغد، والطّفولة، والرّقص، والشّعر.

في البيت سألَنا أعضاء المخيّم عن سبب تأخّرنا، فأخبرتْهم ضاحكةً أنّ خيوط يدي جعلتْنا نسلك الطّريق الأطول في الغابة.

في السّرير، صنعتْ مشاهد اليوم، وجملتها عن خطوط يدي، وقبلة ما قبل النّوم، «صائدة أحلامٍ» حرستْ نومي.

في اليوم التّالي استيقظتُ متأخّراً لمتانة خيوط شبكة الأحلام فوق سريري.

نزلتُ إلى غرفة الطّعام، فشاهدتُها تضحك مع شابٍ على المائدة. لأوّل مرّةٍ أصبح مَن حولنا أشخاصاً، لا أجزاءً من الطّبيعة كالشّلّال والعصافير. ورغم أنّها نادتني كي أجلس في المقعد قربها، وتحدّث الشّاب مع شخصٍ آخَر، إلّا أنّ ذلك جعلني أتسلّل إلى الخارج بعد الفطور لأفكّر وحيداً.

جلستُ على كرسيٍّ يطلّ على البيت، في أوّل طريق الغابة. نظرتُ إلى الأفق متأمّلاً علاقتنا. قلتُ لنفسي إنّ المخيّم سينتهي بعد يومين، وعليّ أن أوضّح الأمور بيننا، وأن أحدّد معها خطواتنا القادمة.

أردتُ تشذيب أفكاري، أخرجتُ دفتري الشّعريّ، وكتبتُ أوّل جملةٍ خطرتْ لي، والتي لم تشبه الجمل فيه:

«سأفتكّ زهرة اسمك من مخالب الغابة».

انتابتني بعد الجملة رغبةٌ ملحّةٌ في أن أُحضر لها زهرة اللّوتس تلك. توجّهتُ مسرعاً دون تفكيرٍ إلى مكان البرك، الذي كان يعجّ بالزّوار وقتها، وقفزتُ في الماء وسط دهشتهم لأسرق الزّهرة من مكانها.

عندها تلبّدتِ السّماء وبدأتْ تمطر بشدّةٍ. ركضتُ بسرعةٍ نحو البيت ممسكاً الزّهرة بحرصٍ، سامعاً الصّراخ خلفي دون أن ألتفت.

وفي الطّريق، فكّرتُ أنّ فارق العمر بيننا لن يهمّ فتاةً مثلها تمشي مبتلّةً في الغابة. وجعلني المطر والزّهرة والطّبيعة أتخيّل أنّنا سنتبادل القبل، والاعتراف بالحبّ، حين أهديها زهرة اسمها.

وصلتُ البيت. سألتُ الآخَرين عنها، فأجابوني أنّها في الأعلى تتحدّث عبر الحاسوب، دون أن يسألوني عن الزّهرة في يدي، أو الماء في ثيابي.

شاهدتُها على يساري وأنا أصعد آخِر الدّرجات، تُحرّك رأسها بصمتٍ وهي ترتدي سماعتَي الأذنين، دون أن تهرب أيّ خصلةٍ من شعرها المربوط.

اقتربتُ منها وأنا أحمل الزّهرة، فشاهدتُ صورة شابٍ في الشّاشة. انتبهتْ إلى وجودي بعد هنيهةٍ، وقالت لي، بوجهٍ متجهّمٍ دون أن تذكر الزهرة، إنّها ستنزل إلى الأسفل بعد أن تنهي مكالمتها مع خطيبها، الذي لم تذكره إلّا لحظتها. وضعتُ الزّهرة على الطّاولة، وتراجعتُ إلى الوراء مسنداً جسدي إلى الحائط الذي يحاذي الدّرج. وصلني في مكاني صوتها المرتفع دون أن أستطيع فكّ حروفه.

أنهتْ بعد ذلك مكالمتها. خلعتِ السّماعتين ولم تنتبه إلى الزّهرة. خطتْ حافيةً في بقايا الماء التي تركتْها ثيابي، فشاهدتُ، وخطّ الطّريق الذي لن نسير فيه يتلاشى في كفّي، قشعريرةً سرتْ في كلّ جسدها.

ضحكتْ سيلينا

لم أكن أعرفها من قبل، ولم أكن قد رأيتُها إلّا حين عرّفتْني صديقتنا المشتركة عليها. كنتُ وقتها في حالةٍ مزريةٍ، لم أحلق شعري ولحيتي منذ أسابيع، في يدي كتابان عن الانتحار، وفي وجهي كآبةٌ لا تضاهى.

وحين وقفتُ في طريق الجامعة الرّئيسيّ للتّكلّم معهما، أخبرتْني صديقتي أنّ الفتاة -التي أحببتُها قبل أن أدخل الجامعة، ودرسنا معاً التّخصّص نفسه، وشاركتْني كلّ شيءٍ في حياتي منذ سنواتٍ طويلةٍ، وبسببها أحمل هذين الكتابين- تجلس بينما نتكلّم ورائي تماماً، دون أن تعيرني نظرةً واحدةً. تجلس بملابس جديدةٍ خضراء اللّون، بوضعيّةٍ لا تتّخذها إلّا حين تكون سعيدةً، مع شابٍ جديدٍ كثيابها.

حينها، أخبرتُ الفتاتين أمامي -بعد أن سألتْني باهتمامٍ صديقة صديقتي عن محتوى الكتابين- أشياء عن الانتحار، كيف أنّ الشّخص الذي ينتحر بالنّار (أو ربّما غرقاً) يريد أن يتطهّر من ذنبٍ مخيفٍ، وأنّ الذي يرمي بنفسه من علوٍّ شاهقٍ، يبحث عن لحظات حرّيّةٍ في الهواء تشعره بالتّخلّص من جسده.

أخبرتُهما أنّ الانتحار إجراءٌ عقابيٌّ يمارسه المنتحر ضد سبب ألمه، حين يعلم أنّ بقايا ضميره ستوجعه إلى الأبد عليه، فيضمن انتقاماً -ولو شكليّاً- لذاته، وخلوداً في ذاكرة من يحبّ. فقالت لي صديقة صديقتي بالإنكليزيّة، وبنبرةٍ كطرقة الشّاكوش: «أنتَ لست مميّزاً كما تظنّ نفسك»، وأضافت بالعربيّة: «ربّما أحزنها الأمر في البداية، لكنّها ستتخطّاه فيما بعد كما تخطّتكَ الآن».

بعدها، أمسكتْ يدي كأنّها تواسيني وتعتذر في الوقت نفسه، وضحكتْ تلك الضّحكة التي ستكون القصّة -التي سأكتبها فيما بعد- محاولةً لوصفها، فعرفتُ على الفور أنّها ستكون سيلينا!

عندما تبتسم ابتسامةً عفويّةً، كوقت يقوم طفلٌ أمامك بعملٍ لا ينتمي إلى مرحلته العمريّة، فإنّ جزءاً في الدّماغ يسمّى «العقد القاعديّة» يأخذ على عاتقه أمرها، بينما حين يُطلب منكَ أن تبتسم، أو تطلب أنتَ ذلك من نفسك، فإنّ القشرة الحركيّة في مقدّمة المخّ (الأقلّ كفاءةً بأضعاف) هي من تقوم بذلك، فتخرج الابتسامة صفراء كملابس مليئةٍ ببقع الدّهون بعد الغسيل، ومنفّرةً كابتسامة بائعٍ متجوّلٍ أمام بابك نصف المفتوح، بعد أن أغلقوا عشرات الأبواب في وجهه.

لكنّ سيلينا كانت ماهرةً بشكلٍ لا مثيل له بكلّ أنواع الابتسامات، كأنّ الابتسام موهبتها الحقيقيّة، كأنّ كلّ أجزاء دماغها بشكلٍ عفويٍّ أو إجباريٍّ، تترك كلّ شيءٍ تقوم به -ولو كان تنظيم التّنفّس أو ضربات القلب- وتُحرّك بمهارة أصابع على أوتارٍ من ماءٍ كلّ عضلات وجهها، حتّى تلك الموجودة في أعلى جبهتها.

عدتُ إلى الحياة بعد شهرين من الانغلاق. حلقتُ لحيتي التي لم تكن مليئةً بالفراشات كلحية والت ويتمان. أكلتُ طعاماً دسماً بعد أن كانت وجباتي السّابقة تشبه طعام المستشفيات، وشاهدتُ وثائقيّاً عن أعشاش الطّيور. سهرتُ مع أصدقائي حتّى الصّباح، فغبتُ عن محاضرتي الأُولى نائماً بلا أحلام. استيقظتُ على صوت سيلينا في رأسي يقول لي: «استبدل الكتابين». وجدتُ نفسي أمام رفّ كتبٍ سينمائيّةٍ، فاستعرتُ «المصباح السّحريّ» لبيرغمان ومذكّرات فيلّيني. ذهبتُ إلى محاضرتي متأخّراً، مقلّداً مشية تشارلي تشابلن، واضعاً قلم رصاصٍ فوق أذني، فضحكتِ القاعة كلّها عليّ، حتّى دفاتر المحاضرات.

حين خرجتُ، شاهدتُ سيلينا وضحكتها جالستَين في المكان نفسه مع شخصٍ يحمل الكتابين اللّذين أعدتهما. وفي اليوم التّالي، شاهدتُها وضحكتها مع آخَر يبكي، وهكذا في باقي الأيّام. وأحياناً، كنتُ ألمحها وحيدةً مع ضحكتها، فنتشارك الطّريق إلى محاضراتنا، أو نجلس قرب شجرة اللّوز أمام متجر الكتب.

أخبرتْني سيلينا أنّها تحبّ الرّوحانيّات كثيراً، تعمل في مؤسّسةٍ خيريّةٍ بأجرٍ رمزيٍّ، وتصرف جلّه على شراء المجموعات الشّعريّة المكدّسة على رفوف المكتبات، التي لا يمسح عنها الغبار أحد.

«أُحبّ القصائد» قالت، «أتركها تتسرّب داخلي كما تتشرّب الأرض طوال أيّامٍ ليلةً ماطرةً، ولا أستخدم ذكاء عقلي أبداً!».

حدّثتْني أيضاً عن رغبتها في أن تصبح راهبةً على طريقتها الخاصّة، تسافر من مدينةٍ إلى أخرى (حازمةً ضحكاتها، فكّرتُ) لتقرأ الشِّعر مع الأطفال.

كان مريدو سيلينا يعِدّون لها مهرجاناتٍ احتفائيّةً في ساحات الجامعة. ذات يومٍ، وبينما كنت أمشي بلا هدفٍ في الطّرقات، سمعتُ كماناً من جهة المكتبة، وحين اتّضح العزف، أصبح مقطوعةً تحاول أن تحاكي صوت سيلينا حين تضحك، فتبعتُها كجملٍ يشمّ رائحة الماء.

وجدتُ العشرات يتربّعون على الأرض ويستمعون إلى المقطوعة. بعدها، أخذ مكان العازف روائيٌّ قرأ فصلاً من آخِر كتبه، جعل فيه الضّحكة شخصيّةً ثوريّةً تتمرّد على الحكومة، وتقود جيشاً من الجماهير إلى قصر الحاكم الذي يتهاوى أمام الغمّازتين. تبعه طالب فلسفةٍ أعدّ دراسةً عن الضّحك السّقراطيّ، ثمّ باحثٌ علميٌّ أجرى سلسلة تجاربٍ أسمع فيها ضحكتها لخلايا سرطانيّةٍ فتابت على الفور، متحوّلةً إلى خلايا مناعيّةٍ. وبعدهم طلّاب اقتصادٍ وطبٍّ وفنونٍ جميلةٍ وحتّى تربيةٍ بدنيّةٍ، وغيرهم كثيرون وكثيرات، فلسيلينا أيضاً مريداتٌ طهّرتهنّ ضحكتها -كما قلن لي- من الحسد الأنثويّ.

أخيراً جاء دوري، مددتُ يدي إلى جيبي فوجدتُ قصيدةً، لم أتذكّر متى كتبتُها، أو إن كنتُ الكاتب، لكنّي وقفتُ على المنصّة وأنشدتُ مقلّداً سفر التّكوين:

«ضحكتِ فخلق الله الأرض كي تبصر الكائنات الكنز

وحين علم الملائكة أنّ في الأرض من سيسفك الدّماء

خافوا أن تتوقّف سيلينا عن الضّحك

قالوا فليضحك خدّاها ولو لم يضحك فمها

قالوا ألا يكفي أنّ الأرض ملعونةٌ بالتّعب؟

قالوا كي لا تُعبد الأوثان اضحكي سيلينا

فحمّلوها ثقل غمّازتين من نبيذ كروم عدن

وقالوا ها هو عزازيل الغيور

يحمل حقائبه نحو البسيطة

لأنّ الرّبّ سمّاها أرض سيلينا».

* * *

اختفتْ سيلينا بعد ذلك، فانتكستْ حالتي كما لم تنتكس من قبل. كنتُ أعمل في مركز لغويّاتٍ في الجامعة، وكانت الفتاة القديمة تجلس أمامي، لقد اخترنا معاً من دون أن ندري العمل نفسه، لم يرضَ أحدٌ منّا أن ينسحب ويترك السّاحة للآخَر.

في ذلك اليوم، وبعد أن غادر باقي زملائنا المكتب، بقينا نعمل على نظام المركز كلٌّ على حدة. لم نتبادل كلمةً واحدةً، فقد انقطع حبل الكلام بيننا، منذ أوقفتُها في منتصف الجامعة أمام الجميع، صارخاً في وجهها كمن يمسك لصّاً.

كان الوجود قربها بـ«صمت الآماد الأبديّ»، بعد سنواتٍ من أحاديث حاولتُ مرّةً أن أحصيها ففشلتُ، يشبه ابتلاع خمس

صباراتٍ وثلاث زجاجات موادٍ مطهّرة. فأحاطتني -فور مغادرة المكان- دوّامةٌ من السّوداويّة، حتّى أنّ لحيتي الخفيفة زادت في اللّيل على قبضة يدي.

بحثتُ عن سيلينا، فعلمتُ أنّها سافرتْ في رحلةٍ روحيّةٍ بعيدة. كنتُ أعلم مكانها حين أسمع في نشرات الأخبار عن أشياء نادرةٍ تحصل في مكانٍ ما من العالم، كسقوط الثّلج في بلدٍ لأوّل مرّةٍ منذ العصر الجليديّ، أو اكتشاف مئات الأزواج من طائرٍ منقرضٍ، أو انتخاب شاعرٍ رئيس وزراء.

كان غياب سيلينا وحضور التي لا أُحبّ تسميتها عصياً عليّ. كنتُ أمشي مضطرباً في ساحات الجامعة ساعاتٍ متواصلةً. لاحظتُ وقتها زيادةً عجيبةً في عدد الملتحين، الماشين مثلي ومثل شخصٍ ينتظر خبر ولادة زوجته، التي حذّرها الطّبيب من الحمل بعد فشل المحاولة قبل ذلك أربع مرّاتٍ.

استمرّ الأمر أسابيع لا أذكر عددها. وبينما كنّا نهيم ذات يومٍ بلا بصيرةٍ، سمعنا أحدهم يهتف بصوتٍ هزّ أركان الجامعة والمدينة التي تحتويها: «عادت سيلينا، عادت سيلينا».

حينها، شاهدنا أنفسنا تغادر الجامعة أفواجاً، كأنّنا خيوطٌ تحرّكها يدٌ لامرئيّةٌ، متّجهين على الأقدام نحو بيتها، الذي بدا أنّ الجميع يعرفون طريقه، دون أن يعلم أيٌّ منّا كيف يعرفه.

وقفنا تحت نافذتها، كانت مغلقةً فارتجفنا جميعاً. وقفنا حائرين ننظر في وجوه بعضنا البعض، حتّى أخذ فمي ينادي وحده سيلينا، فقلّدني الجميع صارخين: «سيلينا، سيلينا، سيلينا».

فُتحت النّافذة. أطلّت سيلينا برأسها الجميل، نظرتْ إلينا نظرة عتابٍ لذيذ، ثمّ ضحكتْ لنا... فأبصرناها، بعد طول انتظارٍ، تلك الضّحكة المرصّعة بغمّازتين تنفخ الفراشات في بوقهما.

عادت سيلينا إلى غرفتها. تركتِ النّافذة مفتوحةً. تأخّرتْ ضحكتها قليلاً باللّحاق بها. نظرنا إلى بعضنا البعض، فأبصرنا ذقوننا وخدودنا تلمع، وضحكاتٍ صنعتْها «العقد القاعديّة» تقرص الأذنين.

البحر خلف البيت

لم أعرفها في البداية بعد كلّ هذه السّنوات، فلم تعد تلك الطّفلة البدينة التي تصغرني بأربعة أعوامٍ، والتي تأتي لتلعب معي على شجرتي خلف البيت هرباً من سخريّة الصّغار، وهي تحمل كيس برتقالٍ تشاركني إيّاه. الطّفلة التي كانت تصحبها أمّها معها لزيارة جاراتها ومن بينهنّ جدّتي.

تعرّفتْ عليّ فور رؤيتي، إذ اتّسعتْ حدقتاها حين نظرتُ إليها وقت دخولي، فاحتجتُ لحظاتٍ قليلةً -بعد أن أدركتُ أنّها تعرفني- كي أتذكّرها، وساعدتْني البرتقالة التي كانت معها. أصبحتْ شابّةً نحيفةً، بوجهٍ جميلٍ ممتلئٍ قليلاً ببقايا الطّفلة التي كانت، وبشعرٍ مسترسلٍ يحتفظ في بعض خصلاته بظلال جدائل قديمةٍ.

فهمتُ -بعد أن سرقتُ الكلام دون خجلٍ من أمّها وجدّتي- أنّها تدرس في سنتها الجامعيّة الأخيرة، وقد عادت مع عائلتها بعد أن تركتِ البلدة سنواتٍ عديدةً، وأنّ والدها لا يزال يعمل في تجارة البرتقال، وأخيراً، أنّها عزباء بعد أن رفضتِ العديد من الشّبّان كما قالت أمّها.

والحقيقة أنّي لم أشكّ أبداً بصدق كلام أمّها، فابنتها هذه قادرةٌ بالفعل على جذب كلّ انتباهٍ بحضورها الكثيف هذا، الشّبيه بمنحوتةٍ فنّيّةٍ قديمةٍ مجهولة المبدع، تحجب كلّ القطع حولها.

سألتُها عن الشّجرة، فأخبرتْني أنّها خرجتْ لتفقّدها عند وصولها. وحين عادت إلى بيتها بعد أن شعرتُ بسعادةٍ مشتركةٍ بيننا، فاتحتُ جدّتي بالموضوع فوراً، طالباً منها مساعدتي في الارتباط بها بأسرع وقتٍ، قبل أن يسرقها شخصٌ آخَر بلا شجرةٍ مشتركةٍ معها.

تلقيتُ بعد يومين مكالمةً من جدّتي. كان عليّ القدوم عصر اليوم إلى بيتها إذ رتّبتْ لي لقاءً مع الفتاة، بعد أن تحدّثتْ إلى أمّها، التي تحدّثتْ بدورها إلى ابنتها. كنتُ مدعوماً لدى الأمّ بتاريخ عائلتي الذي تعرفه جيّداً، ولدى البنت بماضٍ مشتركٍ يستغلّ الحنين المفرط عند الجميع.

وصلتُ أوّلاً ثمّ وصلتْ بعدي. كانت تحمل كيس برتقالٍ، وبمراوغةٍ أنثويّةٍ مكشوفةٍ قالت لجدّتي إنّ أمّها أرسلتْه لها. اقترحتُ أن نجلس على شجرتنا، فوافقتْ بعد أن شعرتُ بتردّدها في البداية. أخذنا حبّتَي برتقالٍ معنا. قشّرتُ لها برتقالةً كأيّ رجلٍ نبيلٍ، وطلبتُ منها أن تسألني كلّ أسئلتها، فحدّثتُها عن عملي وجامعتي وعلاقاتي السّابقة وهواياتي. كنتُ أذكّرها -بين كلّ سؤالٍ وآخَر- بأن تأخذ كامل حرّيّتها وتسأل ما تريد دون حرج. وبعد أن انتهت، سألتْني ما الذي أريد معرفته عنها، ورغم أنّ ما أعرفه كان كافياً لي، طرحتُ -لكي لا أشعرها بالرّيبة والقلق- أسئلةً تقليديّةً، محاولاً وهي تجيب تذكّر أسئلتها قبل قليلٍ. ولم أركّز جيّداً في أيٍّ من

أجوبتها المفصّلة، إذ كنتُ مسحوراً بها تحت أغصان الشّجرة، وبشهيّة أكل البرتقال لديها الشّبيهة بشهيّتها القديمة.

وبعد أن نفدتْ أسئلتي، قالت إنّها ترغب في أن تكون الخطبة قصيرةً، فوافقتها فوراً، إذ كنتُ على عجلةٍ أكثر منها. وسردتُ عليها في نهاية جلستنا قصصاً من طفولتنا، جعلتْنا نضحك معاً كما لم نضحك منذ سنواتٍ.

قضينا معظم فترة خطوبتنا على شجرتنا خلف بيت جدّتي، كعصفورين صغيرين هاربَين من الطّيور الجارحة وطلقات الصّيّادين. وقد وجدتْ ذلك ملائماً جدّاً، إذ كانت في سنتها الجامعيّة الأخيرة شبيهةً بنحلةٍ عليها أن تصنع الرّبيع وحدها، بسبب المواد الكثيرة والامتحانات ومشروع التّخرّج، فتزوّجنا بعد تخرّجها بالصّيف.

كان صيفاً سحريّاً، شبيهاً بأن يتزوّج الإنسان دواخله العميقة. كانت تتحوّل في العناق إلى الطّفلة البدينة التي كانت، إلى شجرة بيت جدّتي تحت الشّمس الحارسة، وإلى الطّفل الذي كنتُه، والذي يظنّ نفسه حيواناً مغروساً في العالم.

شيئاً فشيئاً في أثناء تلاشي الهالة الذّهبيّة النّاتجة عن الاصطدام بجمالها، وعن اللّقاء بعد كلّ هذي السّنوات، بدأتُ أنتبه -كلّما اقتربتُ منها أكثر- أنّها لم تكن الشّخص ذاته، فبعد أشهر الزّواج الأُولى، لم تعد، عندما أقصّ عليها إحدى الذّكريات، تبادلني الحماس الذي كانت تمتلكه وقت تعارفنا. وفيما بعد، أصبحتُ أُبصر في وجهها انزعاجاً عند الحديث عن الماضي، تحاول جاهدةً إخفاءه كي لا تجرح مشاعري. وكانت أيضاً تمتلك ذاكرةً مقتضبةً لا تستدعي

الكثير من ذكرياتنا معاً، حتّى «السّعيدة» منها، في مقابل ذاكرتي المشبعة بالتّفاصيل.

كانت شهيّتها للطّعام ضعيفةً، حتّى للبرتقال، رغم محاولاتي جعلها تأكل أكثر. فبدأتُ أُدرك -وأنا أحاول النّظر إلى طفولتها بمعزلٍ عن طفولتي- أنّها لم تكن سعيدةً، فليس سهلاً على الإطلاق في عالمٍ كهذا أن يحيا طفلٌ بدينٌ حياةً مستقرّةً (تتضاعف الصّعوبة لدى الطّفلة)، فلا بدّ أنّها سترغب في عيش حاضرها الجديد هذا كاملاً، بعيداً عن النّظر إلى الوراء.

وكنتُ رغم ذلك أشعر بحبّها لي، ببحثها عن أناي الحالية، لكنّي كنتُ أشعر في الوقت ذاته أنّي أوفّر طمأنينةً لها، وملاذاً ضدّ الظّروف العصيبة، لأنّي قبلتُها في شجرتي حين رفضها الجميع.

في اللّحظات الكثيرة التي لا نتحدّث فيها عن ذكرياتنا، كنتُ أستشعر عمق الكارثة التي افتعلتُها بتسرّعي، فلم أجد شيئاً حينها أشاركها إيّاه. ولم أعد مع الوقت أرى فيها أيّ ملامح جمالٍ خارجيٍّ، كأنّها شجرةٌ كنتُ أسقيها حماسها المرتدّ نحوي، الذي جفّ الآن، فأصبحتُ أشعر بمللٍ شديدٍ من أكثر أحاديثنا طبيعيّةً.

صرتُ أقضي الوقت بالخارج، ولا أعود إلّا عندما تكون نائمةً، فلم أكن أحتمل رؤية يأسها الخجول في وجهها. كانت تشبه بينيلوبي وهي تغزل في شرفةٍ أمام الضّوء الرّماديّ كي تخدع أصواتها المتربّصة بها كعشّاقٍ لحوحين. لم أشعر برغبةٍ في تركها، فقد كانت جسري الوحيد رغم شبهه بحبلٍ فوق الهاوية، وقد كنتُ شخصاً أخلاقيّاً يتحمّل مسؤوليّة أفعاله، يداوي نفسه بالوقت، وبأمل الحبّ

مع العِشرة. ربّما أنجبنا أطفالاً، ربّما اشترينا بيتاً مع قطعة أرضٍ صغيرةٍ، زرعنا شجرةً كشجرتنا في وسطها وأشجار برتقال. لكنّي كنتُ أقطع هذه الخيالات فوراً، وبخاصّةٍ إنجاب الأطفال، لئلّا أرتكب حماقةً أخرى لن أعرف كيف أصحّحها.

لذلك، لم أستطع رفض رغبتها في الذّهاب إلى حفلة الشّواء في بيت جدّتي، التي خطّط لها الجيل الجديد في عائلتنا كي نعمّق روابطنا الأسريّة بعد أن أصبحنا جميعاً متزوّجين، تكفيراً عن ذنوبي، ومحاولاً أيضاً رمي بعض الخشب على الجسر الهزيل. حفلة شواءٍ أُحسّ فيها بغربتي مضاعفةً معهم، أُبصر نفسي في معدن سهامهم المشدودة إلى الأمام نافورةً تعمل بماء أعماقها المكرّر، المحرّم عليه المطر.

ذهبنا إلى الحفلة. كان الطّقس مشمساً والوجوه ضاحكةً ودخان الشّواء يعوّض السّماء عن الغمام. شاهدتُ زوجتي تندمج مع العائلة كفردٍ منها، وتعرّفتُ على حسّ الفكاهة لديها الذي لم أكن أعرفه من قبل. كانت في ذلك اليوم مركز الدّائرة، وكنتُ سعيداً للغاية لأجلها، لكنّني كنتُ أدور خارج محيطها في دائرةٍ غير مرئيّةٍ، فابتعدتُ بهدوءٍ عن الدّخان، والحديث عن الأعمال، وقصص الأطفال، إلى خلف البيت حيث تنغرس شجرتي القديمة دون أن يقوى الزّمن على المساس بها.

صعدتُ إلى مكاني المفضّل عليها، متذكّراً مهاراتي القديمة بالتّسلّق. كنتُ أتسلّق بخيالي كلّ شيءٍ، الأشجار والأسوار والحيطان. تذكّرتُ كيف كنتُ أتسلّق أنا وزوجتي هذه الشّجرة، وكم كنّا قردين صغيرين سعيدَين. بعد قليلٍ، شاهدتُ ظلًّا قادماً نحوي، لم أستطع

تمييزه أوّل الأمر، إذ كان يمشي في شبه ظلمةٍ من تكاثف الدّوالي فوقه، ثمّ اكتسى الظّلّ جسداً كان زوجتي الحاملة كيساً في يدها.

تسلّقتْ إلى مكانها قربي بين الأغصان. فتحتْ كيس برتقالٍ قائلةً إنّها سرقتْه من المطبخ، كانوا سيعدّون منه عصيراً طازجاً. سألتُها عن سبب تركهم رغم اندماجها معهم، فأجابتني أنّ ما يهمّ هو اندماجنا معاً. قشّرتْ برتقالةً وأعطتني نصفها فأكلتُه على الفور. حدّقتُ فيها وهي تأكل على مهلٍ، فشاهدتُ صورتها كأنّما انعكستْ من مرآةٍ عميقةٍ، ولمّا سألتْني بضحكةٍ خجولةٍ لماذا أحدّق هكذا، اقتربتُ منها وقبّلتُها أكثر قبلةٍ حميميّةٍ بيننا صنعتْها شفاهٌ حارّةٌ من برتقالٍ. كانت قبلةً متبادلةً، تعبّر لي فيها عن حبٍّ يبحث عن سماءٍ لأغصانه، وأعبّر فيها عن حبٍّ حارقٍ وُلد الآن، يمدّ جذوره الخفيّة كهذي الشّجرة في طفولتي.

حينها تحوّل التّراب حولنا إلى بحرٍ كبيرٍ. كان البحر هادئاً، وأخذنا نشير معاً إلى الأسماك والحيتان وقطع اليابسة. أمسكتُ يدها مقبّلاً إيّاها وهي تأكل بيدها الأخرى برتقالةً جديدةً. لم أنتبه من قبل إلى جمال يدها الصّغيرة، التي كانت لسببٍ ما تشبه كثيراً الطّفلة التي كانت. وحين انتهتْ من تناول برتقالتها، سحبتُها برفقٍ إليّ من اليد التي أقبّلها، وضعتُها على صدري وحوّطتُها بذراعيّ، تاركاً الطّفل الذي كنتُ يتسلّق كلّ الأشجار إلى شفتيّ. أنعشتْنا قُبلنا كأنّا تزوّجنا لتوّنا، فوقفنا على سارية شجرتنا، واحتضنتُها من الخلف كما في الفيلم الشّهير، بينما كانت الأسماك تقفز فوقنا والدّلافين تغنّي والبحر يخترع المرجان.

بعد ذلك شعرنا بطاقةٍ هائلةٍ داخلنا كطاقة الطّفولة، فقرّرنا أن نعود إلى الماضي، أن نبحث عن جزيرةٍ ملائمةٍ كي نوقف فيها سفينتنا. تسلّقتُ السّارية الأماميّة وتسلّقتِ الخلفيّة. أخذ كلٌّ منّا يبحث في اتّجاهه بمنظارٍ مصنوعٍ من يديه عن المكان الموعود. استغرقتُ في الخيال في تلك اللّحظة، رأيتُنا نبني في جزيرتنا بيتاً فوق الشّجرة نسكنه معاً ولا نغادره، نزرع الأرض حول جذعه بيّاراتٍ تداعب رائحتها الموج... قطع أحلام يقظتي صراخٌ من السّارية الخلفيّة. ضربتْ عاصفةٌ سفينتنا دون أن أنتبه فغرقتْ زوجتي. كان يبدو أنّها تغرق منذ وقتٍ مستنجدةً بي، حولها حبّات البرتقال تصنع طوقاً غير موجود. مددتُ ذراعي إليها فلم أفلح بإمساكها. قطعتُ غصناً من الشّجرة (وكم آلمني ذلك) وقرّبتُه منها، لكنّ البحر ابتلعه.

كان البحر غاضباً والموج عالياً، وكانت تصرخ وتستغيث مبتلعةً المياه المالحة. تشبّثتُ بالسّارية بقدميّ ومددتُ كلّ جسدي كي ألتقطها، فتمكّنتُ -بعد أن ارتطمتِ الأمواج بوجهي وأفلتتْ منّي مرّاتٍ عدّةً- من إمساك يدها في النّهاية. كانت يدها تشبه الطّفلة التي كانت، فأخذتُ أتأمّلها والماء يضرب جسدها. أعادتني موجةٌ صفعتني إلى العاصفة، لكنّها أفلتتْ يدينا وسحبتْ زوجتي بعيداً عن شجرتنا. نظرتُ إليها ممسكاً جذع الشّجرة بكلتا يديّ. كان وجهها المستسلم للموج يشبه وجه طفلٍ جميلٍ ملفوفٍ بلحافٍ أزرق، وكان غرقها يدفع السّفينة بعيداً برياحٍ سوداء تصطدم بأوراق الشّجرة المرتجفة.

توقّفتِ العاصفة بعدما اختفتْ زوجتي. حبت السّفينة على سطح الماء تاركةً دوائر تكاد لا تُرى. نظرتُ حولي بجهدٍ كبيرٍ بعد أن استعدتُ حضوري، فأبصرتُ جزيرةً قريبةً تتّجه نحوها سفينتي.

قافيةٌ لرثاءٍ سريعٍ

حكاية سعاد

كنتُ طفلاً شقيّاً في طفولتي. أغلقتْ كلّ حضانةٍ بابها في وجهي. وفي كلّ صباحٍ قبل أن تذهب إلى عملها، كانت أمّي تجرّني إلى بيتٍ جديدٍ من بيوت معارفها، سرعان ما سيرفض استقبالي، فأشعر في كلّ مرّةٍ أنّي انتصرت على شيءٍ كنتُ أجهله.

لكنّ بيت خالة أمّي سعاد التي لم تتزوّج أبداً، كان الوحيد الذي بقي مفتوحاً أمامي، ولم يشعرني بأنّي أنتظر أمّي، ولا أردتُ فيه الانتصار على شيءٍ.

وأتذكّر الآن جيّداً يوم أخذتْني أمّي إليها أوّل مرّةٍ، كيف حدّقتْ فيّ على العتبة بزرقة عينيها، ثمّ جرّتني برفقٍ من ذراعي، مفرغةً إيّاي من غضبي، بهالتها الدّخانيّة الزّرقاء التي كنتُ بالكاد قادراً على رؤيتها، كما تُفرَغ سفينة الشّحن من حمولتها، وسط دهشة أمّي التي لم تعد تعرف ابنها.

كان البيت -الذي أسكنتْها إيّاه جدّتي في عمارتها الصّغيرة- يتكوّن من مطبخٍ وحمّام وغرفةٍ واحدةٍ للنّوم والمعيشة، تحتوي على أريكتين وتلفازٍ وسريرٍ وخزانة ملابس، تشاركها إيّاه قطّةٌ رماديّةٌ، في فروها زرقةٌ لا تُبصَر إلّا عند النّظر جيّداً.

في الصّباح الهادئ كقطرات الحليب المسكوبة بنعاسٍ في الكأس في يميني، كنتُ أجلس على السّجّادة الصّغيرة المزركشة، أربتُ بيساري على فرو القطّة الذي يزداد زرقةً مع مرور الأيّام كهالة سعاد، مراقباً الضّوء الضّبابيّ وهو يدخل النّافذة التي تطلّ على سريرها. أشرب نصف الكأس، فيصل الدّخان كي يختلط بضوء النّافذة. أتبع الدّخان إلى مصدره، فأعثر على سعاد بهالتها المتوهّجة وعينيها الملتمعتين من السّجائر، وهي تهب الصّمت مفاتيحه كاملةً، مستعيدةً أحدها فقط حين تسحب الهواء بقوّةٍ من سيجارتها، فتطير حبوب النّباتات في الخارج، وأسمع اصطدامها بالنّافذة.

وكنتُ بعد أن أشرب الكأس كلّه، أُصبح قادراً على رؤية الضّوء والدّخان وعينَي سعاد وهالتها وفرو القطّة في الوقت ذاته، كأنّ الأشياء -وأنا معها- غدت شيئاً واحداً، لا يتغيّر فيه سوى ضوء الخارج، فيزداد إشعاعاً كلّما تحرّكتِ الشّمس المربوطة بخيطٍ إلى سيجارتها، وسوى تعرّجات الدّخان الذّهبيّة حين تمرّ أمام النّافذة.

وبعد أن تدخّن عدداً من السّجائر معطيةً كلّ واحدةٍ حقّها، كانت توقف صمت الغرفة العذب فاتحةً التّلفاز كي تستمع إلى القرآن، فنستمع بخشوعٍ معها. وأحياناً كان التّلفاز يضطرب، فتكمل القراءة من حيث توقّف الشّيخ. وعندما تعود الصّورة، كان صوتها يخرج من التّلفاز، فأعجبُ من قدرته على أن يكون في مكانين، في لحظةٍ واحدةٍ.

ثمّ ينتقل البثّ إلى برامج الأطفال، فتعدّ لي شطيرة زعترٍ وزيتٍ، أتقاسمها مع القطّة التي تشاهد التّلفاز مثلي. وكلّما شعرتْ

بمللنا من البرامج، تضخّم صدرها كالمصارع، إذ تستنشق دخان السّيجارة عذب الرّائحة ملء رئتيها، لتنفخه في الهواء كثيفاً فيحجبها عن ناظري، فأظنّها قد اختفتْ، ولمّا ينقشع رويداً رويداً، وتبان عيناها الزّرقاوان من تحت الخمار الرّماديّ، تبدأ بصنع أشكالٍ تروي بها علينا قصص الأولياء، كأنّها تمتلك مسرحها الخاصّ في الهواء، وكأنّ عينيها ممثّلان أزرقان.

كانت جدّتي –مديرة مدرسة البنات– تزورنا فجأةً أحياناً، إذا عادت باكراً من مدرستها، فتومئ سعاد بعينها إلى القطّة قبل أن تفتح جدّتي الباب، فتمسك القطّة علبة السّجائر جاريةً بها إلى المطبخ، تقفز على الرّخام، ومنه إلى ظهر الخزانة، لتخبّئ العلبة هناك. وكانت سعاد تلمّ خيوط الدّخان الضّائعة في هواء الغرفة، بقوّة رئتيها وبمعاونةٍ من هالتها، كراعٍ يعيد الخراف الضّالّة إلى القطيع، كي لا تشتمّ جدّتي –التي تعطيها مصروفها– الرّائحة فتوبّخها.

كان حديثهما مقتضباً، فلم تحبّ أيٌّ منهما الكلام. وكانت جدّتي تسألني إن كنتُ أرغب في الصّعود إلى شقّتها، فكان جوابي دائماً أنّي أريد البقاء، فتضحك ضحكةً حزينةً وهي تنظر إلى أختها المشغولة بالرّبت على قطّتها.

كانت سعاد تحبّ الغناء وهي تدخّن، تغنّي أشعاراً صوفيّةً بنشازٍ محبّبٍ دون أن تلتزم بلحنٍ معيّنٍ. غير أنّها، حين يزرنها صديقاتها كلّ خميسٍ في الصّباح، تتخلّى عن النّشاز، وتلتزم بلحن الجماعة التي تصبح جسداً واحداً ينشد وهو يدخّن، يتّسع لجسدي الصّغير المحاط بالجدّات، الذي يقلّد اللّحن فقط دون أن يقدر على نطق

الكلمات، مشاهداً الهالات جميعها وقد غدت هالةً واحدةً ناصعة الزّرقة، يغذّيها دخان السّجائر الذي لا يؤذي الطّفل، ترقص حول نفسها حتّى الدّوار.

في الظّهيرة، كانت أمّي تعود من عملها، فأستعيد حمولتي خارج البيت قرب العتبة، لكن أستعيدها ناقصةً قطعةً كلّ مرّةٍ. وفي الخارج، لم أكن أتكلّم عن الأشياء التي تحدث في الدّاخل، إذ كنتُ أشعر بأنّي أمتلك سرّاً مشتركاً مع سعاد، لا ينبغي أن أُطلع أحداً عليه.

* * *

كبرتُ ودخلتُ المدرسة. قلّت زياراتي إلى بيتها. كسل أبي وأمّي عندما أطلب منهما زيارتها، وقت المدرسة ووظائفها المرهقة وأفكارها والإجبار على الانتباه، منْع التّحديق خارج النّافذة وأحلام اليقظة، برامج الأطفال والألعاب الإلكترونيّة، أصدقائي الجدد في الحارة والمدرسة، ومرور الزّمن ذاته، كلّ ذلك جعلني أبتعد.

وكانت زياراتي القليلة إلى بيتها تتمّ برفقة الآخَرين، فلم تكن تستطيع أسرارها أن تتجلّى أمام أشخاصٍ لا يستطيعون استقبالها. وكلّما ابتعدتُ أكثر، كانت هالتها تخفتُ أكثر في عينيّ، حتّى تلاشت تماماً في مراهقتي عندما أصبحتُ أبحث عن أسرارٍ أخرى في النّساء، واختفت القطّة كالهالة أيضاً.

في سنتي الجامعيّة الأخيرة، رأيتُ في إحدى اللّيالي في المنام، أنّي أجلس في قطارٍ يسابق صفيره، فتمتدّ يدٌ من النّافذة تمسكني من معصمي وتسحبني خارجها، فأجدني وجهاً لوجهٍ أمام سعاد المتوهّجة

بهالتها، التي حدّقتْ في عينيّ معيدةً أدقّ تفاصيلنا معاً، فتذكّرتُ كلّ شيءٍ كأنّه يحدث الآن أمامي.

استيقظتُ بذراعٍ تؤلمني، ورغبةٍ في زيارة سعاد، فرنّ الهاتف قائلاً إنّ سعاد قد ماتت.

لم يكن الحزن شيئاً في تلك اللّحظة أمام الغضب الذي بدأ بالعودة.

وفي العزاء، كانت سفينتي تعبّأ بحمولتها إذ أستعيد المشاهد القديمة.

تحاشيتُ دخول البيت الذي امتصّت نافذته دخان المعزّين، ولم أفعل ذلك إلّا بعد انتهاء الأيّام الثلاثة، عندما شعرتُ أنّ الوقت حان.

دخلتُ البيت الذي كان مليئاً بالكراسي البلاستيكيّة وأباريق القهوة. وقفتُ على كرسيٍّ، ثمّ على رخام المطبخ، فرأيتُ على ظهر الخزانة علبة سجائر مفتوحةً. تفحّصتُها مشتمّاً إياها، وأعدتُها إلى مكانها كي لا أعبث بنظام الأشياء.

دخلتُ الغرفة، فشاهدتُ على الفور جزءاً صغيراً شاحباً من هالتها، يضرب الجدران مثل طائرٍ حبيسٍ. تعرّف الجزء عليّ، فاقترب منّي، ودخلني كأنّي قفصه الذي سيرتاح فيه من طلقات الصّيّادين. عندها، كنتُ قادراً على رؤية حياة سعاد في سنواتها الأخيرة، بعدما انقطعتْ زياراتي.

شاهدتُ امرأةً أخرى لا أعرفها، غاضبةً وضعيفةً، تصرخ وتشتم وتبصق على الأرض، وتضرب بعصاها التي تساعدها على المشي

قدم الممرّضة التي تعيش معها. وشاهدتُها أيضاً تلاعب دميةً قديمةً تحملها ظانّةً إيّاها طفلها. لكنّي لم أبصر هالتها أو دخان سجائرها.

كان غضبي من كلّ شيءٍ يكبر داخلي، غضبي من نفسي في المقام الأوّل. وأدركتُ أنّي لا أعرف شيئاً عن حياة سعاد قبل زياراتي الصّباحيّة أو بعدها. ولم ينفع تبرير انقطاع زياراتي بعدم الرّغبة في رؤيتها بصورةٍ مغايرةٍ.

شعرتُ بعد ذلك أنّ عليّ إعادة ذلك الجزء من هالتها، فقرّرتُ أن أزور قبرها.

أمام قبرها في الصّباح، بكيتُ لأوّل مرّةٍ منذ خبر موتها. وقفتُ بخشوعٍ يشبه خشوعي القديم. استعنتُ بالشِّعر الذي أصبحتُ أكتبه حديثاً، مستعيداً روحه القديمة في بيتها، فأنشدتُ لها قصيدةً بعدّة مقاطع، أنهيتُها بسطرين يصفان كنوزها:

...كنوزكِ ستثقل ظهري ما حييت
كسفينةٍ مهترئةٍ تحمل ذهب ألف ليلة

في تلك اللّحظة، سمعتُ صوت حيوانٍ يركض، أدركتُ عندما أدرتُ رأسي أنّه قطّتها التي لم أرها منذ زمنٍ. اتّجهتْ نحو القبر وهي تحمل علبة سجائر مفتوحةً في فمها، فتبعها على الفور ذلك الجزء من الهالة داخلي. كانا يزدادان زرقةً كلّما اقتربا من القبر، حتّى اختفيا في النّهاية بعد عبورهما من فتحةٍ صغيرةٍ.

عندها، خرج دخانٌ من الفتحة، وارتفع نشيدٌ جماعيٌّ، وتوهّج القبر بالزّرقة، وشعرتُ بحمولتي تُفرَغ، ولا يبقى منها سوى الذّهب.

جابر بن حيّان

أنا جابر بن حيّان، أبو الكيمياء وصاحب بلاط العناصر. اعتزلتُ الآخَرين كما اعتزل شيخي أبو العلاء النّاس. نفاني الملك المعظّم إلى هذا البيت القديم. إنّي وحيدٌ حتّى الثّمالة، لا أرى أحداً سوى الحارس المسؤول عن تأمين طعامي وحبسي.

نفاني الملك قبل أن أتمكّن من تحويل التّراب إلى ذهبٍ، لأنّ حسّادي اتّهموني بأنّ علمي دليل الشّرك بالله! فمن أنا حتّى أُشرك بالمطلق؟ أطاعهم الملك المفدّى رغم أنّه لا يقلّ كفراً عنّي. كنتُ قد اقتربتُ من تحويل التّراب إلى ذهبٍ في المعمل الكبير في قبو جلالته. لم أكن آبه بالذّهب، ولو كنتُ أطمع فيه، لهربتُ بثيابي فقط، فعلمي في صدري كالنّقش المذهّب على خاتم مولاي.

بقيتُ إذن، لأنّ ملايين الجوعى من المسلمين قد ينالهم بعض فتات جلالته. أعلم أنّ جبل ذهبٍ في جيب الحاكم لا يُسقط سوى النّتف، لكن ما الذي كنتُ أملكه سوى شغفي بالخلق، وشفقتي على الآخَرين؟

أنا وحدي، أستطيع الهرب إذا أردتُ، فقد اكتشفتُ ممرّاً سرّيّاً تحت البيت يؤدي إلى الخارج، لكنّي لم أفكّر بالهروب أبداً، لا

خوفاً من عقاب، أو تقليداً لسقراط، بل تعباً... وحبّاً بزنزانتي، بهذا البيت الصّغير.

اعتزلتُ الآخَرين كما اعتزل شيخي أبو العلاء النّاس. نعم، «كم سيتعلّم العلماء لو أصغوا إلى الشِّعر!»، كما سيقول أحدهم يوماً.

لا يعلم الحاكم أنّي تمكّنتُ قبل سنواتٍ من تحويل التّراب إلى ذهبٍ. كان بيتي يعجّ بولع الملوك هذا، لكنّي أكره هذا اللّمعان الكافر، أُحبّ التّراب أكثر، أشعر بالأخوّة معه في هذا الفراغ الهائل.

لا بدّ من مؤنسٍ يؤنس وحدتي. قضيتُ آخِر سنواتي عاكفاً على تحويل التّراب إلى شيءٍ أثمن من الذّهب، أردتُ تحويله إلى إنسانٍ، إلى جسدٍ حيٍّ ينبض بالمشاعر والأفكار، يقول لي «صباح الخير»، يشتمني، يحّبني ويكرهني، فأنا كنتُ أكره جنديّ السّلطان كما أكره السّلطان وسيفه.

سألتُ نفسي: «هل أحوّله إلى امرأةٍ أم إلى رجلٍ؟» أريد ابناً، لن أقوى على امرأةٍ لعوبٍ تصنع من لحيتي الطّويلة أرجوحةً. أردتُ ابناً يحمل اسمي، أعلّمه الكيمياء، وأدلّه على باب السّرداب كي يعمّ النّور الأمكنة.

كان عليّ أن أزرع التّراب في رحم الأرض تسعة أشهرٍ، مزجتُه ببعض الذّهب، إذ علّمنا المعلّم أفلاطون أنّ طين الفلاسفة يمتزج به.

* * *

ثمّ أصبح أمامي، ذهبي الوحيد. في البدء كنتُ مزهواً بخَلقي، كلّما نطقتُ اسمه يلبّي النّداء: «أمركَ أبي».

شعرتُ أنّي طاووسٌ في غرفةٍ مليئةٍ بالمرايا. سمّيتُه حيّان، علّمتُه الكيمياء، وأبعدتُه عن الذّهب.

كنتُ أشاهده يكبر كلّ يومٍ أمامي. كان ينمو بسرعةٍ كلهب المعادن. شعرتُ أنّ عنصراً جديداً أضيف إلى جدول العناصر، وفرحتي كانت فرحة مكتشفه.

لكنّه بدأ مع الوقت يكره اسمه، أصبح يطيل انتظاري حين أناديه، ويجيب بتذمّرٍ وبتأفّفٍ يثقل صدري. صار يقضي الوقت يقلّدني، حوّل غرفته إلى معملٍ كمعملي، وقبضتُ عليه أكثر من مرّةٍ وهو يدرس تجارب الذّهب التي حرّمها على نفسه.

أراد الاسم كاملاً، حين كان الحارس الغافل ينادي: «تعال أيّها الخيميائيّ خذ الطّعام»، كان هو من يلبّي النّداء، ولم يشكّ الحارس أبداً، فولدي يشبهني كثيراً، ولا شكّ أنّه أعزى الشّباب لخلطة عناصر سحريّةٍ.

غدا الأمر يضايقني كثيراً، فلا أحد يرضى أن يُسرق اسمه أمامه، ولو كان السّارق ولده الوحيد.

فكّرتُ أن أنهي حياته، لكنّي من جنى عليه منذ البداية، فكيف أحمّله جنايتي؟

تحدّثتُ طويلاً معه، قلتُ له عليك أن تقتل اسمي وتعثر لك على واحدٍ جديدٍ. أرشدتُه إلى الممرّ السِّرّيّ وسمحتُ له بالهروب، لكنّ ولدي كان يشبهني أكثر ممّا ظننتُ.

ذات ظهيرةٍ نادى الحارس: «جابرٌ أيّها الخيميائيّ»، فقام هو. كان في السّابق يقوم ببقايا خجلٍ تلمع في جسده، بينما يقوم الآن دون أن ترفّ له عينٌ. قمتُ لأردّ فمنعني قائلاً: «أنا جابر بن حيّان، الكيميائيّ الكبير وصاحب بلاط العناصر، فمن أنتَ حتّى تردّ؟».

كان علينا أن نتقاتل طويلاً، كان قويّاً، لكنّ خبرته في المبارزة لم تعادل خبرتي.

وبعد معركتي مع ولدي الحبيب، ها أنا أكتب هذه المخطوطة. لكن، حتّى الآن لا أعرف من انتصر، أيّنا جابر الحقيقيّ؟ أيّنا مات في المعركة؟ «ومن منّا يكتب هذه المخطوطة؟».

حصان السّيّد وحيد

جالساً على كرسيّه الخشبيّ قرب الفونوغراف الذي ينبعث منه صهيل الجاز، سها قليلاً وهو يفكّر بصديقه الوحيد الذي مات حديثاً، والذي كان يلتقيه كلّ أسبوعٍ على رقعة الشّطرنج في المقهى، فتنتهي أغلب المباريات بالتّعادل، حين يتبقّى لكلٍّ منهما ملكٌ وحصان.

في الحلم، رأى نفسه على حصانٍ يسرع مثيراً غباراً يغلّف الرّكض بموجةٍ نحاسيّةٍ، يبتعد عن شخصٍ يلوّح على صخرةٍ بملامح تشبه ملامحه في المرآة.

استيقظ بشعورٍ غامضٍ. تذكّر المرّة الوحيدة التي ركب فيها حصاناً، عندما كان يبلغ من العمر ستّ سنواتٍ. ركبه بلا سرجٍ، شعر بحرارة جسده في ثيابه، وبالسّعادة والخوف. وكلّما أسرع، كان يتشبّث بشعر عنقه، باحثاً عن نظرات والده الذي يمسك اللّجام.

شيءٌ ما منذ صغره كان يربطه بالأحصنة. يمرّ أحدها قربه، فيترك تحديقه بقعاً على جلده. يشاهد واحداً في التّلفاز، فيبقي على القناة، لعلّه يحظى بمشاهدته مجدّداً. تعجّب من نفسه كيف لم يركب حصاناً سوى مرّةٍ واحدةٍ، كيف لم يتعلّم الفروسيّة رغم أنّه يسكن قرب قريةٍ تشتهر بتعليمها.

قاده تفكيره في الأحصنة فجأةً إلى الشّعر، أخذ يتذكّر كيف أراد في شبابه أن يصبح شاعراً، جمّع قصائده في كتابٍ بتشجيعٍ من الفتاة الوحيدة التي بادلها الحبّ، وأراد نشره. وفي النّهاية، أحرقه انتقاماً منها، عندما علم أنّها تحبّ شخصاً آخَر معه، تحبّه بصدقٍ، وتحبّ آخَر بالصّدق ذاته.

لكن، وحدها قصائد الأحصنة كانت لا تزال عالقةً في ذهنه. تذكّر قصيدةً كان يحبّها لسان جون بيرس، يمدح فيها حصان طفولته، يصف ملمس جسده، منخاريه وهما يستعيدان الهواء من العناصر، وركبتَي الطّفل الشّبيهتين بقمرين ينبض فيهما دم الحصان. تذكّر بيت شعرٍ للمتنبّي، لم يبقَ منه سوى صورته الغامضة، كان يظنّ الجياد تعدو فيه. عاد إلى ديوان المتنبّي للمرّة الأُولى منذ أن هجر الشِّعر، فعلم أنّ البيت لم يكن عنها، لكنّه لم يأبه بذلك، فأنشد جاعلاً إيّاها تطير عوضاً عن الجِمال:

نحـــنُ رَكْـــبٌ مِلْجِـــنٍّ في زيّ نـــاسٍ
فـــوْقَ طَـــيرٍ لهـــا شُـــخوصُ الجِيـــادِ

ترك أحصنته على الكرسيّ، وقام كي يعدّ كوب شايٍ. تذكّر شاي أمّه، ثمّ شاي زوجته، أمّ ولده المسافر في الخارج، الذي لم يشعر نحوه سوى بالواجب. لقد اعتاد زوجته وصورة الأمّ فيها، وتركه رحيلها يتيماً للمرّة الثّانية في حياته.

في الصّباح استيقظ مجدّداً على حلمٍ حصانيٍّ، الذي كان جميلاً هذه المرّة. رأى نفسه مغامراً يشبه دون كيخوتي، لم يسبق له أن قرأ الرّواية، فلم يكن يحبّ الرّوايات. حدّثتْه حبيبته المولعة باللّغة

الإسبانيّة عنها، عن الفارس العجوز الذي يحارب طواحين الهواء، فظلّت الصّورة في ذاكرته بفضل الحصان.

وبينما كان يغسل وجهه بتكاسلٍ، لمعتْ فكرةٌ في رأسه، لماذا لا يشتري بمدّخراته حصاناً؟

كان دخله الوحيد راتب تقاعده، لم يكن مبلغاً كبيراً، بيْد أنّه لم يكن يصرف المال سوى على طعامه القليل، وعلى دفع الفواتير المختلفة، فقد ورث بيته عن أبيه، وأورثه معه صحّةً جيّدةً، يكفي أن يراجع الطّبيب مرّةً في السّنة كي يطمئن عليها. لذلك، كان يدّخر المال المتبقّي بعد أن يرسل بعضه أحياناً إلى ولده.

مشى في الشّقّة مفكّراً أين سيقيم الحصان، وكيف سيتمكّن من العيش في مكانٍ بحجم شقّته. كانت النّافذة في غرفة ابنه تدخِل هواءً بارداً، وحين أغلقها أدار رأسه فمسح نظره المكان بأكمله، فرأى أنّه يستطيع أن يجعل الغرفة بيتاً للحصان.

انتهى من تهيئة الغرفة بعد أن تخلّص من السّرير والخزانة، وبعد أن اشترى ما يكفي من القشّ ووزّعه بأشكالٍ هندسيّةٍ متناسقةٍ، جعلتْه يُدهَش كيف يبدو المكان شبيهاً بصورة الإسطبل في مخيّلته.

لم يتبقَّ له عندها سوى أن يشتري رفيقه الجديد، الحصان الذي يركض منذ عقودٍ تحت جلده.

ذهب إلى المزرعة القريبة. لم يكن يفقه شيئاً بأنواع الأحصنة. شاهد أشكالاً وأحجاماً مختلفةً لها، وحين كان يسأل عن سعر واحدٍ يعجبه، كان المبلغ يفوق كلّ تصوّراته.

وفي النّهاية، اشترى أرخصها ثمناً.

لم يعد يتذكّر متى كانت المرّة الأخيرة التي بقي فيها حتّى هذا الوقت في الخارج. قضى اليوم كلّه ممتطياً حصانه في السّهل المجاور لبلدته. وكان عليه أن يتأخّر حتّى يضمن نوم جميع سكّان الحيّ، فيتمكّن من تهريب حصانه إلى شقّته في الطّابق الخامس.

كان نزول المصعد بطيئاً إلى الطّابق الأوّل. خاطب الحصان قائلاً: «سندخل المصعد الآن، أرجوكَ لا تخف ولا تصدر صوتاً يا حصاني العزيز». دخلا وهو يمسك بيده فم الحصان، الذي لم يفضحه في المصعد الذي لا يحتوي مرآةً.

«هذه غرفتكَ، هنا طعامكَ وماؤكَ، أرجوكَ تصرّف كأنّكَ في بيتكَ يا حصاني» قال مخاطباً إيّاه مجدّداً، وضحك على دعابته. لم يستطع النّوم رغم تعبه الشّديد في تلك اللّيلة. كان خائفاً عليه من الوحدة، ومن الهواء الجديد على رئتيه. ظلّ طوال اللّيل يذهب إلى غرفته كي يطمئن على نومه. وعندما وجد الطّقس بارداً، أغلق بهدوءٍ النّافذة، ولم يأبه بالرّائحة التي ستملأ الغرفة.

في كلّ صباحٍ، وبعد أن يتأكّد من مغادرة آخِر سيّارةٍ في ساحة العمارة، كان يتملّص بهدوءٍ مع حصانه. وفي الحقل القريب، كانت الأشجار طواحين هواءٍ يصارعها، دون أن يشعر بأنّ مفاصله عدوٌّ عليه مبارزته، أو تهزّ الرّيح فيه شيئاً غير أجنحته القديمة.

لكنّ الأمر لم يكن ورديّاً بالكامل، فتنظيف روث الحصان في الغرفة، ووضع الطّعام والماء له، وتهريبه يوميّاً، كان يتطلّب جهداً كبيراً، يضاف إلى أعباء الأعمال المنزليّة المعتادة.

وفي غرفته، كان الحصان أحياناً يدور حول نفسه، يركل البلاط أو الحائط، ويصهل بصوتٍ مرتفعٍ، رغم محاولة إيناسه بالموسيقى، ما أزعج الجيران، الذين عاتبوه أكثر من مرّةٍ مستفسرين عن الضّجّة، فكان ينكر -كلّما فتح الباب لهم بعد الطّرق الملحّ- أنّ بيته مصدرها، أو أنّه يربّي «عفريتاً».

وكلّما أصدر الحصان صوتاً، كان يحاول إخفاءه بطرقٍ عديدةٍ، كأن يربطه في الغرفة، أو يضع سجّادةً تحت حوافره، أو يغلق فمه بيده، أو يربت عليه وهو يطعمه جزرةً. وصار أيضاً يرفع صوت التّلفاز والفونوغراف كي يغطّيا على الضّجيج.

حتّى زارته في النّهاية لجنة العمارة. تحدّثوا معه على الباب عن الأصوات العديدة التي تصدر من بيته، وعن الرّائحة الكريهة التي يشتمّها جيرانه القريبون. ولمّا أنكر الأمر، قالوا له بوضوحٍ إنّ عليه أن يتخلّص من الحيوان الذي يربّيه في بيته، وإلّا أبلغوا الشّرطة بالأمر.

رضخ في النّهاية. أخرج الحصان وجرّه كي يبيعه. تحدّث معه كعادته أمام الجميع، قائلاً: «هيّا يا حصاني». ولم يأبه بالأصوات خلف ظهره، التي تنعته بالجنون لأنّه ينادي حماره بـ«حصاني».

ضيعة المتنبّي

محلّقاً في الصّحراء، لم يكن يعرفه شيءٌ سوى جواده والغبار. كان نيلٌ آخَر لا يشبه الذي خلفه يتدفّق تحت آثار الحوافر، غير أنّه لم يكن قادراً هذه المرّة على ملاحظته.

الهلال فوقه منجلٌ يبحث عن يدٍ كي يصير زورقاً. ورسالة سيف الدّولة في جيبه لم تخفّف وجع النّدبة.

ورغم ذلك، خرج إلى الضّيعة الصّغيرة التي وهبها إيّاه، غير آبهٍ بتكاثر الرّوم على التّخوم.

قطع بلاداً كثيرةً حتّى وصل إليها، إلّا أنّه كان طوال الوقت يقيم في موجة غبارٍ لا خارج لها، غبارٍ يثيره ضرب جواده –المشتعل بالعرفج– رملاً غير مرئيٍّ.

لحظة وصوله وخروج النّاس لاستقبال ذلك الملثّم الغامض، أصبح بعيداً عن كلّ شيءٍ، عن النقّاد، عن دسائس الشّعراء، وعن النّساء المزيّنات بخواتم السّاسة.

عرفوه فوراً، فهالته المضيئة حوله رغم هرمه كانت تشبه النّار في قصائده. ومن وجوههم النّائية كانت جدّته تطلّ، وتفسح لأنفاسه مكاناً في الهواء.

نادوه بالأمير، فلم يؤلمه الأمر. أرشدوه إلى بيته كي يرتاح إلى أن يُعَدّ الطّعام. طلب منهم أن يضمّوا جواده إلى بني جنسه. أحضروا له ماءً كي يغسل الصّحراء عن جلده، فشاهدها تسيل منه إلى هوّةٍ في التّراب.

نضج الطّعام سريعاً. جلس بينهم على الأرض. كان يشبه بحّاراً في الرّياح يتدفّأ على وهج الفنار، فلم يشعر أنّه بعيدٌ عنهم، ولم يشعر بأنّه قريبٌ. هناك مكانٌ في داخله لم يعد حتّى المجاز يستطيع الاقتراب منه.

قضى أيّامه الأُولى متمدّداً على سريره لا يفكّر في شيءٍ، سامحاً للأصوات في الخارج بالدّخول إلى عزلته، ولم يقطع أحدٌ صمته كي يقضي له أمراً.

كان يعلم في قرارة نفسه أنّ سيف الدّولة أرسل في طلبه كي يجبّر ساق فرسه المكسورة، فلا شيء يعيد الأفراس إلى عدوها كقصائده، لكنّ الحمّى باعدتْ بينه وبين شعره، أطلّتْ نفسه على الموت، وحين عادتْ، كان يجري في المسافة بينهما جوادٌ معقودٌ في صهيله الغبش.

لكن، حتّى الحمّى لم تستطع إبعاد شبح ندبة الدّواة عن جبينه.

* * *

بعد أيّامٍ قضاها في سريره، قام قبل الفجر والنّاس نيامٌ. أمسك قنديله بيدٍ، وبالأخرى قطعة فحمٍ.

على جدران القرية أخذ يكتب الأبيات الأقرب إلى قلبه، أبياته وأبيات الآخَرين. اللّيل تمدّد في نور المصباح ليضيء للشِّعر الطّريق في سواد الفحم.

كان يرسم بسرعةٍ كأنّ الرّيح تحت يده، كأنّه يحفر خندقاً عليه أن ينهيه قبل أن يصل العدو.

وعندما استيقظ الأهالي، أثارتْ عجبهم الأبيات التي شاهدوها في كلّ مكانٍ، كأنّ القرية أصبحتْ فجأةً ديواناً نقشه شبحٌ وقت نومهم.

خفّف ذلك غربته، فصار يتجوّل في الكتاب كمن يمشي في دائرةٍ من داخله وخارجه. يطلّ من شرفته الدّاخليّة على نساءٍ يلدن في ظلّ استعارةٍ، على عاشقَين يتبادلان القبل خلف توريةٍ، على تجّارٍ يغلّفون بضائعهم بالجناس، على أبياتٍ عديدةٍ تعارض المكتوبة، وعلى مغسّلين يلفّون الميْت بقافيةٍ تهيّئ الولادة لبيتٍ جديد.

* * *

وصل جيش الرّوم بعد أن هزم جيش سيف الدّولة. كان واقفاً على شرفته مطلًّا على الجمع الذي أحرق الأفق. أشار بيده المسودّة من الحبر، فتحرّكتِ القصائد على الجدران جيوشاً، يعاونها إنشاد السّكّان من نوافذهم، جيوشاً ستُغرق الجحافل بالمشاعل في حروفها، فلكلّ جنديٍّ من العدوّ حربه التي يصرعه فيها تأويله.

في المساء، وبعد أن أبصر أرواح القتلى في زيّ طيرٍ فوق جثث الجيش، دخل أخيراً إلى غرفته. لم يتبقَّ في الفحمة سوى آخِرها، فرسم على الجدران أبياتاً له في الحمّى.

أودع جسده الفِراش، شاعراً بالذّرّات السّوداء في أصابعه. رقد في مهبّ الأبيات، مردّداً بأنفاسه قوافي حفرها في الأمس على قبر الجدّة.

GIGI AND ALI´S RABBIT

قصص

جيجي وأرنب علي

«تُنبئ هذه المجموعة وتبشّر بوعدٍ كبير في حقلها، حيث يسرد الكاتب حكاياته، ويقدّم شخوصه، ويرصدُ بيئته وقضاياه من بؤرة الطفولة وبوصلتها، فيبدو كلّ شيءٍ بكرًا، وطازجًا، وبسيطًا وشعريًّا ومَبعث إثارة وفضول، ما يدفع القارئَ إلى أفقِ المغامرة والتوقّع، ويشدّ البصرَ للمرئيّات والنفسَ للإحساس، معتمدًا الوصف أداةً أولى؛ إمّا لرسم الشخصيّة أو لوحات البيئة، وإمّا لتوليد الإحساس، وهي مِهارة مطلوبة في فنّ القصّ عندما يتضافر عنصرا السرد والتشخيص، ويوظّفان لبناء القصّة ونقل محكيّها وتوصيل خطابها وضمنه مرماها ومعناها.

لا تخفق أيّ قصّة في إثارة الدهشة وقدرة الكاتب على تنوّعٍ عوالمه وتعدّدها، وقدرته على تشكيل هذه العوالم المتنوّعة بالمهارة نفسها، كاشفةً عن كتابة ممتازة واستثنائيّة، وأسلوب خاصّ ومتفرّد يحوي السخرية اللاذعة، وذكاء الالتقاط، وخفّة السرد في قصص فلسطينيّة تروي اليوميّ والمنسيّ في التفاصيل الصغيرة للحياة تحت الاحتلال، وفي ظلّه».

من بيان لجنة تحكيم مسابقة الكاتب الشاب للعام 2019.

مؤسسة عبد المحسن القطان
A.M. QATTAN FOUNDATION

مكتبة نوميديا

الأهلية
الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2021
الغلاف: 95297109 7 00962